أندريه بلاتونوف



الأشباح

ترجمة: خيري الضامن



رواية

أندريه بلاتونوف

الأشباح

رواية

ترجمة: خيري الضامن



رواية «الأشباح»

"Джан"

(повесть)

تنشر بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية



الطبعة الأولى، 2016

عدد الصفحات: 192

القياس: 5 .14 × 5 .21

دار سؤال للنشر

لبنان - بيروت

الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس

ص.ب: 58-360-11

هاتف: 740437 1 00961

@darsouall2014 www.darsoual.com



Dar Soual dar_souaal@outlook.com

ISBN: 978-614-8020-24-7

لوحة الغلاف للفنان الروسي بافل فيلونوف (1883-1941)

في فترة 1933–1935 كتب بلاتونوف بعد رحلته إلى تركمانيا رواية «الأشباح» (عنوانها الأصلي: «الجان»)، وبطلها نزار شاغاتايف موفد إلى الصحراء لإنقاذ قومه من الهلاك.

كتب الشاعر الروسي المخضرم يفغيني يفتوشينكو عن هذه الرواية يقول: «جاءت رواية الأشباح استجابة حية من الكاتب على أحداث الواقع السوفيتي في العشرينات والثلاثينات. وهي تجسّد مسيرة شعوب آسيا الوسطى المتخلفة آنذاك نحو الاشتراكية واتخذت عند بلاتونوف صيغة بحث عن السعادة يقوم به شعب خرافي مكوّن من أناس يتامى حُرموا إرادة الحياة وأنهكتهم العبودية والظلام. والوضع الذي يعيشه هذا الشعب يشبه الوقوف على حافة الهاوية، حيث تكفي بلوى أخرى جديدة، في عداد المصائب الكثيرة، لتودي به. وكل ما يملكه هذا الشعب المغلوب على أمره هو «القلب وحده عندما ينبض في الصدر»».

ويضيف يفتوشينكو: «تبدأ الأشباح كرواية سيكولوجية، وبالتدريج تتصاعد فيها عناصر الأسطورة، فكان من نتيجة هذا الامتزاج بين الأسس الاجتماعية – السيكولوجية والرمزية – الفلسفية أن ظهر إلى الوجود واحد من أفضل أعمال بلاتونوف عن مسيرة شعب إلى الحياة، إلى النور».

د. عبد اللّه حبه

1

نزار شاغاتايف شاب آسيوي خرج من مبنى معهد الاقتصاد بموسكو إلى الباحة، وتطلع حواليه مندهشاً، ثم عاد إلى نفسه نافضاً الزمان الطويل الذي قضاه هنا، حول هذه الباحة، حيث أمضى عدة سنوات، واستهلك فتوّته دون أن يأسف عليها. فقد ارتقى الآن ذروة العقل والحكمة، ومن تلك الذروة العالية يلوح هذا العالم الصيفي واضحاً صافياً بعد أن سخنته شمس المساء الغاربة.

في الباحة عشب نبت دون رعاية من أحد، وفي الركن صندوق قمامة، يأتي بعده مستودع خشبي أكل الدهر عليه وشرب، وقربه تنمو شجرة تفاح شائخة، ووراء تلك الشجرة العجوز الوحيدة التي لا تتمتع بأي حنان من إنسان صخرةٌ ضخمة حافظت على شكلها الطبيعي ووزنها الهائل ولا أحد يعرف من أين جاءت، وعلى مسافة أبعد انغرزت في الأرض عجلة حديدية لحافلة من القرن التاسع عشر.

الباحة خالية. جلس الشاب على عتبة المستودع وغرق في تأمّلاته. كان قد استلم من إدارة المعهد وريقة تفيد بأنه ناقش أطروحة التخرج، أما الشهادة نفسها فستُرسَل إليه فيما بعد

بالبريد. ولن يعود إلى هنا بعد الآن. فودع في قرارة نفسه كل الجمادات المتواجدة حواليه، فهي أيضاً ستغدو في زمن ما من الأحياء، ستغدو حية من تلقاء ذاتها أو بجهود الإنسان. تفقّد كل أشياء الباحة التي لا حاجة لأحد بها، ولمسها بيده، إذ كان لسبب ما يريد لتلك الأشياء أن تتذكره وتحبّه. لكنه نفسه لم يكن يصدق بذلك. وهو يعرف من ذكريات الطفولة أن زيارة الموضع المعروف تثير في النفس إحساساً غريباً حزيناً بعد الفراق الطويل: فأنت لا تزال مرتبطاً به بوشائج الفؤاد، أما الأشياء الجامدة فقد نستك ولم تعد تعرفك وكأنها عاشت بدونك حياة مفعمة بالفرحة والنشاط، بينما بقيت أنت غريباً عليها وحيداً في مشاعرك، تقف الآن أمامها كائناً بائساً مجهولاً.

وراء المستودع تمتدّ الحديقة العتيقة. وفيها أعدّوا الطاولات وأوصلوا الكهرباء للإنارة المؤقتة وزينوا المكان بمختلف أنواع الزينة. فقد حدّد عميد المعهد هذا المساء موعداً لحفلة الدفعة الثانية من الاقتصاديين والمهندسين السوفيت من خريجي المعهد. ترك نزار باحة المعهد الذي تلقّى تحصيله العلمي فيه وتوجّه إلى دار الطلبة ليأخذ قسطاً من الراحة ويغيّر بدلته استعداداً للسهرة... رقد على سريره وغفا دون قصد في غمرة الإحساس بالفرحة الجسدية المفاجئة التي لا تصادف المرء إلا في عنفوان الشباب.

وفيما بعد، عندما خيّم الظلام، عاد شاغاتايف إلى حديقة معهد الاقتصاد. ارتدى بدلته الرمادية الجيدة التي حافظ عليها طوال سني الدراسة وحلق ذقنه أمام مرآة نسائية يدوية. كل

حاجياته موجودة تحت الوسادة وفي الخوان الصغير قرب السرير. وقبل أن يتوجّه إلى الحفلة تطلّع بأسف في داخل خزانة ثيابه المعتمة الخالية، فستنساه قريباً وتتلاشى رائحة ملابسه وجسده إلى الأبد من هذا الدولاب الخشبي.

في دار الطلبة يقيم طلبة من معاهد أخرى، فتوجّه نزار إلى الحفلة وحيداً. في الحديقة تعزف أوركسترا دعيت خصيصاً من دار السينما، والطاولات مرتبة في صف واحد طويل، وفوقها تنير مصابيح كبيرة علّقها الكهربائيون على دعائم خشبية وقتية. ليل الصيف الخاوي يخيّم على رؤوس الحاضرين الذين اجتمعوا.في آخر حفلة وآخر لقاء لهم، وكل روعة ذلك الليل تحلّق في الفضاء المكشوف الدافئ، في هدوء السماء والنبات.

الموسيقى تتهادى والشباب جلوس عند الطاولات، وهم على استعداد للتفرق منها في أرجاء الأرض الفسيحة لكي يوفّروا السعادة لأنفسهم في تلك الأرجاء. موسيقى الكمان تخفت أحياناً مثل صوت واهن بعيد.

وخيّل لنزار أن ذاك هو صوت شخص يبكي وراء الأفق، ربما في تلك البلاد التي لا يعرفها أحد، حيث ولد أيام زمان وتعيش فيها أمه الآن، أو ربما ماتت هناك.

- جولشتاي!- تلفظ بصوت مسموع، فسألته جارته المهندسة:

- ماذا؟ ماذا تعني؟

- لا أعني شيئاً. - أوضح لها نزار- جولشتاي أمي، واسمها

يعني زهرة الجبل. الأسماء تطلق على البشر وهم في سن الطفولة عندما يشبهون كل ما هو طيب وجميل. . .

تهادى صوت الكمان من جديد. كان يتشكى، بل ويدعو إلى الإقدام والذهاب دون رجعة، فالموسيقى تُعزف دوماً من أجل النصر حتى عندما تكون حزينة.

وسرعان ما بدأت الألعاب والرقص وابتهاجات الشباب المعتادة. تطلّع شاغاتايف إلى الحاضرين والى طبيعة الليل.

كان مقدراً له أن يبقى في هذا العالم أمداً طويلاً، ربما إلى الأبد، يصارع الآلام ويعمل ويتمتع بالسعادة.

قبالة شاغاتايف جلست امرأة شابة لا يعرفها. عيناها تلمعان ببريق أسود وفستانها الأزرق يُطبق على جيدها حتى الذقن وكأنها عجوز، فكان مظهرها بسبب ذلك مليحاً وليس مريحاً. لم تكن راغبة في الرقص، ربما بسبب الخجل أو قلة المهارة. وراحت تتطلع إلى نزار باهتمام. أعجبها وجهه الأسمر بعينيه الضيقتين الصافيتين وهما تسلطان عليها نظرة طيبة متجهمة. وأعجبها صدره العريض الذي ينطوي على قلب مفعم بمشاعر خفية، وفمه الواهن الرقيق الذي يجيد الاكتئاب والابتسام. لم تكن تخفي ميلها إليه، فابتسمت له، لكنه لم يردّ بشيء. وكان صخب الابتهاج يتزايد. طلبة الاقتصاد والتخطيط والهندسة يلتقطون الزهور من الطاولات ويقطفون الأعشاب من الحديقة ويقدمونها باقات إلى صديقاتهم أو ينثرون الأعشاب رأساً على شعورهن الكثيفة. ثم ظهر نثار الوريقات الملونة وراح الحاضرون يرشون بها بعضهم بعضاً مغتبطين. واختفت المرأة التي كانت جالسة قبالة نزار. فهي الآن

ترقص مبتهجة في ممشى الحديقة ونثار الورق الملون على شعرها.

كانت النسوة الأخريات الجالسات عند الطاولات مبتهجات أيضاً من اهتمام أصدقائهن بهنّ ومن الطبيعة ومن الانتظار اللذيذ لمستقبلهن الذي يضاهي الخلود من حيث المدى والآمال. وكانت إحداهن بلا زهور ولا نثار ملون على الشعر. لم يهمس لها أحد بكلمات الفكاهة والتنكيت، فكانت تبتسم ابتسامة تثير الشفقة لتقول بأنها تشاطر الجميع ابتهاجهم وأنها نفسها مبتهجة مرتاحة بينهم. لكن عينيها كئيبتان صبورتان كعيني ماشية العمل. في بعض الأحيان تجول ببصرها في جوانب مختلفة بحثاً عن شخص ما بحاجة إليها، وعندما لا تجد أحداً تشرع على عجل بالتقاط الزهور والأشرطة الملونة الساقطة على كراسي الجيران وتخبئها خلسة. لاحظ نزار تصرفها هذا لكنه لم يفهمه. وقد شعر بالملل من الاحتفال الرتيب الطويل فهمّ بالانصراف. ونهضت المرأة التي كانت تجمع الزهور الساقطة ومضت إلى جهة ما. فقد أشرفت الحفلة على الانتهاء وكبرت النجوم وأرخى الليل كل سدوله. نهض شاغاتايف وانحنى لأقرب الرفاق، فلن يلتقي بهم في القريب العاجل.

مرّ نزار بالأشجار ولمح تلك المرأة ذات الوجه الطولاني مختبئة في الظل. لكنها لم تره. كانت تشكّ الزهور والأشرطة الورقية في شعرها. ثم مضت من وراء الأشجار صوب الطاولات المضاءة. وعاد نزار في الحال إلى هناك. كان يريد أن يقلب الطاولات ويُسقط الأشجار ويوقف هذا الابتهاج الذي تتساقط

عليه دموع الأسى، لكن المرأة كانت الآن سعيدة ضاحكة، وفي شعرها الفاحم وردة، مع أن آثار الدموع بادية في عينيها. ظل نزار في الحديقة. اقترب من المرأة وقدّم نفسه. واتضح أنها طالبة في السنة المنتهية من معهد الكيمياء. دعاها لترقص معه مع أنه لا يجيد الرقص، فرقصت بأروع ما يكون وقادته على إيقاع الموسيقى حسب الأصول. جفّت عيناها بسرعة واستعاد محيّاها رونقه، أما البدن المتعود على الحياء والانطواء فقد التصق بنزار الآن مطمئناً مفعماً بالعفاف المتأخر فوّاحاً بدفء طيب كالرغيف. ونسي شاغاتايف نفسه معها، فالاطمئنان والسعادة ينبعثان من هذه المرأة الغريبة التي لن يلتقي بها بعد الآن في أغلب الظن. فما أكثر ما تتواجد قربنا نعمة لا نلاحظها.

استمر اللقاء والمرح حتى بزغ الفجر. ثم خلت الحديقة، فتفرق الجميع ولم يبق إلا الأدوات الجامدة. سار نزار وصديقته الجديدة فيرا في شوارع موسكو التي أضاءها نور الفجر. نزار الآسيوي يحب هذه المدينة حبه لمسقط رأسه، ويشعر بالامتنان لأنه أقام فيها أمداً طويلاً وتلقّى تحصيله العلمي وأكل الكثير من الخبز دون ملامة من أحد. تطلّع إلى رفيقته فوجد محيّاها جميلاً في ضوء الشمس التي أشرقت من بعيد.

مرّ الوقت وارتفعت السماء وصفت، وانهمكت الشمس في إرسال خيراتها إلى الأرض وراحت تسكب الضوء بلا انقطاع. وسارت فيرا صامتة. فيما كان نزار يحدق فيها من حين لآخر، وهو مندهش لأنها قد تبدو قبيحة للآخرين، بينما يذكّره صمتها المتواضع بصمت الأعشاب وبإخلاص الصديق الودود. من بعيد

فقط يمكن كره الإنسان ورفضه أو اتخاذ موقف لامبالٍ إزاءه. لكن شاغاتايف عندما رأى عن كثب تجاعيد الإرهاق على خدّيها وقرأ تعبير وجهها الذي يخبئ رغباتها وحدّق في عينيها اللتين يحرسهما الحاجبان وشفتيها المنتفختين، ورأى الزخم الروحي السحري الكامن في المادة العضوية الحية لهذه المرأة وتحسّس كيان جسدها الطيب المتين تخاذل أمام الحنان عليها وصار عاجزاً عن القيام بشيء للصمود أمام إغرائها حتى أنه شعر بالخجل من التفكير فيما إذا كانت جميلة أم لا.

وقالت فيرا:

- تعبتُ جداً، سهرنا الليل كله، فلنفترق إذن.

- تمهلي. - أجابها شاغاتايف - أنا سأسافر قريباً، فلنبقَ معاً بعض الوقت.

واصلا سيرهما واجتازا شوارع طويلة، ثم توقفا، وأومأت فيرا إلى مسكن كبير جديد:

- هذا بيتي.

- فلنذهب إلى بيتك. سترقدين أنت لترتاحي وسأجلس قربك ثم أذهب.

وقفت فيرا مرتبكة. ثم قالت: - طيب. - واقتادت ضيفها.

غرفتها كبيرة مؤثثة بأثاث الفتيات العادي. لكنها كئيبة مضجرة وفارغة تقريباً ونافذتها مسدلة الستائر.

خلعت فيرا معطف المطر فلاحظ نزار أنها مكتنزة البدن أكثر مما تصوّر. ثم أخذت تبحث في أركان الغرفة لتجد ما تُطعم به

ضيفها. بينما لفتت انتباه نزار لوحةٌ قديمة مزدوجة معلقة على الحائط فوق سرير الفتاة. اللوحة تجسّد الأحلام عندما كانت الأرض تعتبر مسطحة والسماء قريبة. شخص نهض على الأرض وفتح بهامته ثغرة في قبة السماء وأدخل رأسه حتى الكتفين في الجانب الآخر من السماء، في اللانهاية الغريبة لذلك الزمان، وراح يتطلع إلى هناك، إلى المجهول، في الفضاء الغريب، حتى نسي باقي جسمه تحت السماء العادية. وفي النصف الثاني من اللوحة المنظر نفسه ولكن في وضعية أخرى. جسم الإنسان متعب نحيف، وربما هو ميت، ورأسه الهزيل تدحرج في الآخرة، على سطح السماء الشبيهة بطست من الزنك، إنه رأس الباحث عن اللانهاية الجديدة التي ليست لها نهاية بالفعل ولا عودة منها إلى المكان المسطح الشحيح على الأرض.

إلا أن نزار شاغاتايف، كالمريض، لم يعد يهتم بشيء ولا يرتاح لشيء. احتضن الفتاة بوجل عندما انحنت قربه لترتيب صينية على الطاولة، وضغطها بشدة وحذر وكأنه يريد أن يندمج بها ليتدفأ ويستقر. فهمته فيرا في الحال ولم تبعده عنها. عدلت قامتها وخفضت رأسه أوطأ من رأسها وراحت تداعب شعره الخشن الفاحم وأشاحت بوجهها تتطلع إلى جانب والدموع تتساقط أحياناً على رأسه وتجفّ. انخرطت فيرا في بكاء هادئ والدموع وحدها تسيل من العينين. وحاولت أن لا تغيّر تعابير وجهها كيلا تنساق للنحيب المسموع. أحسّ شاغاتايف ببكائها، دون أن يعبأ بما يمكن أن يحدث في هذه اللحظة. فقد بات عاجزاً عن أن يمدّ يد العون لأحد.

- أنت لا تدري طبعاً. إنني حبلى. - قالت فيرا.

- فليكن! - قال نزار متغاضياً عن كل الذنوب، تلفظ هذه الكلمة ببسالة المحكوم عليه بالموت.

- كلا، - قالت فيرا باكتئاب ورفعت طرف كمّها لتجفف الدموع وتحجب وجهها الدميم الذي لا تنساه حتى في المنام. - كلا، لا أستطيع.

لم يلحّ نزار عليها. فهو ليس بحاجة ماسّة إلى السلوى في لذة فورية جياشة مع فيرا ليتمتع بالسعادة. يكفيه أن يكون قريباً منها ويلمس يدها ويسألها عن سبب بكائها، هل هو الحزن أم الإهانة؟

- قُتل زوجي قبل فترة. وأنت تعرف صعوبة نسيان الموتى. الطفل سيولد ولا يرى أباه. والأم وحدها لا تكفيه... أليس كذلك؟

- بلى. - وافقها نزار - سأكون أباً له من الآن فصاعداً.

عانقها واستولى عليهما النوم في الضحى، وصمت في آذانهما صخب البناء في موسكو وحفر باطن الأرض وخلافات الناس في وسائط النقل. تشابكت يداهما وسمع كل منهما عبر النعاس أنفاس الآخر المكبوتة الوادعة.

في عصر ذلك اليوم، قبل انتهاء الدوام في الدوائر، سجّلا زواجهما في أقرب مكتب للأحوال الشخصية. وقفا بين باقتين كبيرتين من الزهور وهنّأهما مدير المكتب بكلمة مقتضبة واقترح عليهما أن يقبّلا بعضهما بعضاً توثيقاً للإخلاص مدى الحياة ونصحهما بأن يُنجبا أطفالاً كثيرين لكي يبقى جيل الثورة إلى

الأبد. قبّل نزار فيرا مرتين وودّع مدير المكتب بودّ وفكر بأنه حبذا لو قبّل فيرا هو أيضاً ولم يكتف بضرورات الخدمة.

من ذلك الحين صار نزار يتردد على فيرا كل مساء، وهي تنتظره وتفرح لمجيئه. فيتعانقان فوراً، وهو يلاطفها بمنتهى الحذر ليصون فيها الطفل الذي فقد أباه. وبعد ذلك يمضيان للنزهة مثلما يفعل جميع الناس عادة، ويتمشيان في الشارع وهي تتأبط ذراعه، ويتطلعان بانتباه إلى واجهات المتاجر وكأنهما يستعدان لشراء الكثير، وينظران إلى السماء التي يجري فيها ما يجري، ولا ينسيان شيئاً مما يحيط بهما من سيل الأحداث المتواصل، وكأن الفؤاد المفعم بالحب ينوء بعبء ثقيل ولا بدّ من تسليته طول الوقت بمختلف التفاهات كي ينشغل عن التفكير بعمله.

إلا أن نزار شاغاتايف لم يكن حتى الآن زوجاً لفيرا بالفعل. فهي ترفض مضاجعته برقّة وخوف كيلا تؤذيه بعدم الاستسلام. إنها كأنما تخشى أن تبيد في سورة اللذة سلواها التي ظهرت فجأة وعلى نحو غريب، أو أنها تتحايل بفطنة وذكاء لتحافظ في زوجها على دفء لا يخبو، فتتدفأ باطمئنان أمداً طويلاً. لكن نزار لم يستطع تحمّل مشاعره إزاء فيرا عندما بقيت تلك المشاعر محصورة في الميل الروحي الذي يفوق طاقة البشر، وسرعان ما بكى حينما رقدت على السرير كأنما هي عاجزة خائرة، لكنها باسمة لا تقهر.

لم يكن نزار يجيد تحمّل عنفوان حياته، فهو يعرف طيبة تلك الحياة وطهارتها، ولذا تهينه الممانعة، فيفقد رشده وأعصابه. وحتى في الطفولة كان على هذه الصورة يضرب الأرض بقدميه

الحافيتين وتنهمر الدموع من عينيه لشدة اهتياجه، ويتهدد المارة ويتوعدهم عندما يرى ما يؤكل معروضاً وراء زجاج سميك ولا يستطيع هو أن يلتهمه.

2

الصيف مستمر. وفحم باطن المستنقعات حول موسكو يحترق من شدة القيظ، وفي المساء تفوح في الجو رائحة الدخان المخلوط بأبخرة دافئة من المزارع والحقول البعيدة وكأن طعام العشاء يُعد في كل أرجاء الطبيعة. كان نزار يقضي الأيام الأخيرة مع فيرا، وقد حصل على تعيين للعمل يحتم عليه أن يرتحل إلى مسقط رأسه في صحراء آسيا الوسطى حيث تعيش أمه أو لعلّها ماتت من زمان. تلك الأنحاء افتقدته صبياً قبل خمسة عشر عاماً. ألبسته أمه التركمانية جولشتاي قبعة عالية من فرو الضأن ووضعت في حقيبته كسرة خبز يابس وأضافت إليها رغيفاً مخبوزاً من جذور االقصب والأعشاب المفرومة ثم أعطته قصبة ليأخذها معه بمثابة رفيق أكبر سناً وأمرته بالرحيل.

– اذهب يا نزار – قالت له، فهي لا تريد أن تراه ميتاً قربها.
– إذا صادفت أباك فلا تقترب منه، وإذا رأيت الأسواق والثروة في كونيا – أورغينش وفي تاش أوز وحيوى فلا تذهب إليها ولا تعرج عليها. اذهب بعيداً، إلى الغرباء، واتخذ لنفسك أباً منهم.

ما كان نزار يريد أن يترك أمه. قال لها إنه تعوّد على الموت ولم يعد يخاف منه، وانه سيأكل القليل. لكن أمه طردته وقالت:

- كلا. إنني ضعيفة ولا أستطيع أن أحبك. فعش لوحدك، وسأنساك.

وبكى نزار قرب أمه. طوّق ساقها النحيفة الباردة وظل واقفاً فترة طويلة منغرزاً في البدن الضعيف الذي تعوّد عليه.

قلبه الصغير مرض آنذاك، انهدّ رأساً ونبض نبضات ثقيلة كما لو امتلأ سائلاً. جلس على أديم الأرض وقال لأمه:

- سأنساكِ أنا أيضاً. ولا أحبك. فأنت لا تستطيعين أن تُطعمي طفلاً صغيراً، وعندما تموتين لن يبقى قربك أحد.

رقد ووجهه إلى الأرض وغفا مبللاً بدموعه وأنفاسه. ثم استيقظ ولا أحد قربه. مضت أمه، وهبّت من الصحراء ريح غريبة تافهة بدون أية عطور ولا أي صوت حي. جلس الصبي هادئاً بعض الوقت، أكل خبز الأم وتلفّت حواليه وراودته أفكار نسيها بمر الزمن. أمامه الأرض التي ولد فيها وأراد أن يعيش عليها، بلد الطفولة الموجود في الظل القاتم الذي تنتهي عنده الصحراء. فهي هناك تُدلّي أرضها في منخفض عميق وكأنها تعدّ لنفسها مدفناً، والجبال المسطحة التي لعقتها الرياح الجافة تحجب نور السماء عن تلك البقعة المنخفضة وتغطي موطن نزار شاغاتايف بالظلام والسكون. ولا يصل إلى هناك إلا ضوء متأخر يسكب غسقاً حزيناً على الأعشاب المتباعدة في السبخة الباهتة وكأن الدموع جفّت عليها، لكنّ الأحزان لم تزايلها.

وقف نزار على حافة الأرض القاتمة الهابطة إلى الأسفل. وبعدها تبدأ الصحراء الرملية الأكثر نوراً وحبوراً. وبين الكثبان الرملية الموات، حتى في أوقات الهدوء، في ذلك اليوم الطفولي

المنقرض، كانت ريح خفيفة تطلب حق اللجوء باكية متململة مطرودة من بعيد. أنصت الصبي إلى تلك الريح وجال ببصره في أثرها ليراها ويبقى معها، لكنه لم ير شيئاً. وعندذاك ندت عنه صرخة، وضاعت الريح ولم يردّ على صرخته أحد. ثم جاء الليل ليلفع الأرض المنخفضة القاتمة التي أبعدته أمه عنها. وانبسطت السدول، ولا شيء غير الدخان الأبيض يتلوى صاعداً من الخيام المستديرة والأكواخ شبه المطمورة حيث كان الطفل يعيش فيما مضى. تلمّس نزار، في حيرة وارتباك، قدميه وبدنه: فهل هو موجود في هذا العالم طالما لا يتذكره أحد الآن ولا يحبه؟ ولم يعد لديه سبب للتفكير بأنه كان يستقي حياته من قوة ورغبة أقاربه، وهم الآن غير موجودين، وقد طردوه... أشواك إبراهيم، تلك النبتة التي يسمّيها الروس بالعاقول الجوال، تتدحرج على الرمال بلا ريح وتمرّ قربه مبتعدة. النبتة متربة متعبة تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة من شدة الكدح والتجوال، وهي وحيدة يتيمة بلا والدين ولا أقارب. إنها تمضي وتبتعد دوماً. لمسها نزار براحته وقال: «سأذهب معك، فأنا أشعر بالملل لوحدي. فكّري فيّ وسأفكر فيك. أنا لا أريد أن أعيش معهم، لم يسمحوا لي بالبقاء، فليموتوا لوحدهم!».

ورفع عصاه القصبية مهدداً مسقط رأسه وأمه التي نسيته.

سار نزار وراء أشواك إبراهيم المتدحرجة وظل يسير حتى خيّم الظلام. رقد عندئذ وغفا من الضعف والخور وهو ممسك بالأشواك كيلا تتركه. وفي الصباح استيقظ وارتعب عندما لم يجد الأشواك قربه. فقد تدحرجت بدونه وحيدة في الليل. أراد أن

يبكي، ولكنه رأى الأشواك في تلك اللحظة تهتز فوق الكثيب الرملي القريب، فلحق بها.

اختفى الموطن والأم من زمان. فلينسهما فؤاده ما دام هو في طور النمو. في ذلك اليوم أوصلته الأشواك الجوالة إلى أحد رعاة الغنم. فسقاه الراعي لبناً وأطعمه، وربط أشواكه إلى عمود كي تستريح هي أيضاً. ظل نزار مع الراعي أمداً طويلاً وعاش عنده حتى تساقط الثلج. وعندذاك أرسل صاحب الأغنام راعيها لأداء بعض الأعمال في شارجوي، لاسيما وأن بصره أخذ يضعف. فاصطحب الراعي الصبي وسلمه في المدينة إلى السلطة السوفيتية لأنه لا حاجة لأحد به هناك. والسلطة السوفيتية تجمع دوماً المشردين والمنبوذين وكأنها أرملة لديها كثير من الأطفال ولا يؤذيها فم آخر.

مرّت على ذلك سنين طويلة، لكن النسيان لم يطو شيئاً، وظلت الأم المفقودة حبيبة كالسابق، وظل القلب دوماً يداري ذكرياتها وكأن الطفولة لم تنته. ولم يكن نزار يعرف أباه أبداً. فقد ضاع أثر إيفان شاغاتايف، الجندي الروسي في القوات التأديبية بمدينة حيوى، قبل أن تلد جولشتاي ابنها، وكانت آنذاك أماً شابة خلّف لها زوجها كوشمات طفلين صغيرين، إلا أنهما توفيا فيما بعد عندما كان نزار صغيراً، وقد حدثته أمه عنهما. أما كوشمات فكان فقيراً وأكبر سناً من زوجته بكثير. كان يعيش على عمله الموسمي في أراضي الإقطاعيين في كونيا-أورغينش وفي تاش أوز لكي يطعم عائلته الخبز في فصل الصيف على الأقل. وفي الشتاء ينام طول الوقت في الكوخ شبه المطمور على سفح جبل

أوست-أورت ليحافظ على قواه الشحيحة أصلاً، وكانت جولشتاي تنام معه تحت بساط واحد لتتدفأ وتغفو كثيراً في شهور الشتاء الطويلة لتوفر على العائلة الطعام، وبينهما يرقد طفلاهما عندما كانا على قيد الحياة. ومن حين لآخر تخرج جولشتاي وتجمع الأعشاب لإعداد الطعام أو تبحث عن عمل بصفة خادمة في حيوى... ذات مرة لم تجد عملاً في هذه المدينة. كان الوقت شتاءً، والأثرياء يشربون الشاي ويأكلون لحم الضأن المشوي والفقراء ينتظرون الدفء ونمو الأعشاب ليقتاتوا عليها. وجدت جولشتاي مأوى لها في السوق، وصارت تقتات على ما يتبقى من الباعة على الأرض، لكنها كانت تخجل من الاستجداء. وفي سوق حيوى لمحها الجندي إيفان شاغاتايف وأخذ يحمل لها كل يوم شيئاً من أرزاقه في قِدر. كانت تتناول حساء لحم البقر في أمسيات السوق الخالي، بينما يلاطفها الجندي شيئاً فشيئاً ثم يعانقها. وما كان بوسعها أن تنكر الجميل وترفض ملاطفاته. فتلوذ بالصمت ولا تبدي مقاومة. وفكرت كيف تردّ الجميل لهذا الروسي، وما كان عندها غير ما وهبته الطبيعة إياها.

- ما سبب هذه الدموع؟ - سألت فيرا نزار في يوم رحيله إلى مسقط رأسه.

- تذكرتُ كيف كانت أمي تبتسم لي وأنا صغير.

- كيف؟

تعذّر على نزار الجواب:

- لا أدري. . . كانت تفرح لي وتبكي عليّ. والناس لا يبتسمون الآن بهذه الصورة. كانت دموعها تسيل على وجه سعيد.

قالت الأم لنزار إن زوجها كوشمات عندما عرف أن نزار ابن جندي روسي وليس ابنه لم يضربها ولم يستول عليه الهياج، بل انكمش وانطوى على نفسه وصار غريباً على الجميع. مضى لوحده بعيداً وظل هناك يداري أحزانه، ثم عاد وأحب جولشتاي من جديد.

مضى نزار شاغاتايف للنزهة مع فيرا لآخر مرة. ففي المساء يستقل القطار إلى آسيا الوسطى. جمعت فيرا حاجيات الطريق الطويل: رتقت الجوارب وخاطت الأزرار اللازمة وكوت بنفسها الثياب الداخلية وفحصت كل الحاجيات مراراً وهي تلاطفها وتحسدها لأنها سترافق زوجها.

وفي الشارع طلبت فيرا من نزار أن يعرّجا على معارفها. من يدري؟ فلربما سيكف عن حبها بعد نصف ساعة.

دخلا شقة واسعة، وعرّفت فيرا زوجها على امرأة متقدمة في العمر وسألتها:

- كسينيا في البيت؟

- نعم، جاءت قبل قليل. - أجابت المرأة.

في غرفة فسيحة غير مرتبة جلست فتاة فاحمة الشعر في الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر. كانت تقرأ في كتاب وتداعب طرف ضفيرتها بأصابعها.

- ماما! - فرحت البنت لقدوم أمها.

- مرحباً يا كسينيا! - قالت فيرا وعرّفت شاغاتايف على الفتاة: - هذه ابنتي.

شد نزار على اليد الغريبة، يد الطفلة والمرأة معاً. كانت اليد وسخة لزجة، لأن الأطفال لا يتعوّدون على النظافة رأساً.

ابتسمت كسينيا. ولم تكن تشبه أمها فيرا. وجهها كوجه صبي معتدل القسمات، تعلوه مسحة من الحزن بسبب الخجل وعدم التعود على الحياة، ومن شحوب أتعاب النمو. عيناها بلونين مختلفين، إحداهما سوداء والأخرى زرقاء، مما أضفى على تعابير وجهها معنى الرضوخ والعجز وكأن شاغاتايف يرى وجهاً قبيحاً رقيقاً يثير الشفقة. إلا أن فم البنت يفسد منظرها. فقد اتسع وامتلأت الشفتان كأنما تشعران دوماً بعطش شديد، كنبتة قوية مدمرة تنبجس من أعماق سكون البشرة العفيفة.

خيّم الصمت على الجميع بسبب حراجة الموقف، لكن كسينيا حزرت بكل شيء.

- أنت تعيشين هنا؟ - وجّه نزار سؤالاً تافهاً لا على التعيين.

- نعم، مع جدتي لأبي. - أجابت الفتاة.

- وأين أبوك؟ توفي؟

كانت فيرا منزوية تتطلع إلى موسكو عبر النافذة.

فضحكت كسينيا.

- كلا، كلا، أبي شاب يقيم في الشرق الأقصى ويعمل في بناء الجسور. وقد بنى جسرين.

- كبيرين؟

- نعم. أحدهما معلّق والآخر بركيزتين وعوامتين ضائعتين،

اختفيتا إلى الأبد. - قالت كسينيا فرحة. - وعندي صورة من الجريدة!

- بابا يحبك؟

- كلا، فهو يحب الغريبات، ولا يريد أن يحبنا أنا وماما.

ظلا يتحدثان، فشعر نزار بأسف مبهم مشوب بحزن خفيف كما في الأحلام والرحلات. نسي الحياة المعتادة، فالتقط يد كسينيا وبقي ممسكاً بها لا يفلتها.

وجلست البنت مرتعبة مندهشة، وعيناها الملونتان تنظران بألم كشخصين من ذوي القربى لا يعرف أحدهما الآخر، فيما وقفت أمها فيرا تبتسم من بعيد لابنتها وزوجها. وسألت:

- ألم يحن وقت الذهاب إلى المحطة؟

- كلا، لن أسافر اليوم. - قال نزار وقشط الأرضية بحذائه وهو يهدئ تململ روحه أمام هذه البنت. وإلى ذلك شعر بالخجل لأن فيرا وكسينيا يمكن أن تعتبرا حالته حباً رجالياً قاسياً، أما هو فلا يشعر إلا بميل إلى كسينيا مفعم بلذة مبهمة وبالقرابة البشرية والاهتمام بمصير أفضل لها. كان يريد أن يغدو قوة تحميها، وأباً وذكرى خالدة في نفسها.

اعتذر شاغاتايف وخرج لنصف ساعة. اشترى في المتجر الكبير مختلف الحاجيات بثلثمائة روبل وجاء بها هدية إلى كسينيا. ولو لم يفعل ذلك لظل آسفاً أياماً طوالاً.

فرحت كسينيا للهدايا بعكس أمها.

- عندها فستانان فقط، وآخر حذاء تمزق. - قالت فيرا -

أبوها لا يرسل شيئاً وأنا بدأت العمل قبل قليل... لماذا اشتريت كل هذه التفاهات؟ ما حاجة البنت إلى العطور الثمينة وحقيبة الشمواه والبساط الملون؟

- لا بأس يا ماما، فليكن! - قالت ناستيا - سيعطونني فستاناً بالمجان في مسرح الأطفال، فأنا أساعدهم هناك، وفي الكشافة سيوزعون علينا جزمات جبلية قريباً، فلا داعي للحذاء. الحقيبة والبساط أفضل.

- مع ذلك، عبثاً. - تشكت فيرا - ثم هو نفسه بحاجة إلى نقود، فالسفر طويل.

- ما معي يكفيني.- قال نزار وأخرج من جيبه أربعمائة روبل تركها للصرف على تغذية كسينيا.

اقتربت منه البنت ومدّت له يدها شاكرة وقالت:

- سأشتري أنا ايضاً هدايا لك فيما بعد. سنحصل على الثروة قريباً.

قبّلها شاغاتايف مودعاً.

وفي الشارع سألته فيرا:

- نزار، ألم تعد تحبني؟ فلنذهب ونقدم طلب الطلاق ما دمت لم تسافر بعد... لقد رأيت بنفسك: كسينيا ابنتي وأنت ثالث زوج لي وأنا في الرابعة والثلاثين.

لاذت فيرا بالصمت، وسألها نزار مندهشاً:

- لِمَ لا أحبك؟ وأنت هل أحببت الزوجين الآخرين؟

- نعم. زوجي الثاني توفي، وأنا أبكي عليه لوحدي حتى

الآن. وزوجي الأول تركنا بنفسه وقد أحببته هو أيضاً وكنت مخلصة له. . .

وأضافت:

- اضطررت أن أعيش فترة طويلة بلا رفيق وأتردد على الحفلات المرحة وأشك الزهور الورقية في شعري بنفسي. . .

- ولكن لماذا تتصورين أني لا أحبك؟

- أنت تحب كسينيا، أنا واثقة من ذلك. . . ستبلغ الثامنة عشرة وأنت في الثلاثين أو أكثر بقليل. وستتزوجان، وسأعلن أنا خطوبتكما. ولكن لا تكذب عليّ ولا تقلق. فأنا متعودة على فقدان الرجال.

توقف شاغاتايف أمام هذه المرأة مذهولاً لا يفهم شيئاً. فالغرابة كل الغرابة ليس في مصيبتها، بل في كونها على يقين بأن الوحدة قدرها الذي لا فرار منه، مع أن نزار تزوجها وشاركها المصير. لقد احتفظت بمصيبتها ولم تستعجل في تبديدها. ذلك يعني أن قوة معادية للإنسان تقبع في أعماق عقله وفي لب فؤاده. قد تذبل بسببها العينان البراقتان المفعمتان بالفرحة في أوج الحياة الفوارة، في أحضان اليدين المخلصتين، بل وحتى في قبلات الأطفال. وسألها نزار:

- ولهذا لم تضاجعيني، أليس كذلك؟

- بلى. فأنت لم تكن تعرف أن لي بنتاً كهذه. كنت تفكر بأنني أصغر سناً وأكثر طهارة. . .

- ثم ماذا؟ ذلك سواء بالنسبة لي. . .

- كلا، أخبرني هل وقعت الآن في حب كسينيا؟

- نعم. - أجاب شاغاتايف - لم أتحمل.

سارا صامتين حتى وصلا منزل فيرا. وقفت وسط غرفتها دون أن تخلع معطف المطر، واحتوتها الغربة واللامبالاة إزاء حاجياتها وأشيائها المحيطة بها. ولو سنحت فرصة مفاجئة لأهدت كل ما تملك من حاجيات إلى جارتها، فلعل هذا التصرف الطيب يهدئ بالها بعض الشيء ويجعل فؤادها المتألم يتقلص مع تقلص تلك الحاجيات. لكن ذلك سيحملها على توزيع بدنها عن آخره، وحتى هذه البقية الأخيرة ربما ستتعذب بالعذاب الشديد نفسه الذي يعاني منه البدن مع الثياب والحاجيات وأسباب الراحة، وسيتعيّن عليها أن تسلّم تلك البقية الباقية أيضاً كي تجهز عليها وتنساها.

يمكن لليأس والعوز والكآبة أن تتقلص وتقبع في آخر مسامة للإنسان ولا يطردها منها إلا أنفاس الاحتضار.

- إذن، فماذا عليّ أن أفعل؟ - سألت فيرا وهي تخاطب نفسها.

نزار يفهم فيرا. فعانقها وظل ملتصقاً بها أمداً طويلاً لكي يهدئها بدفئه على الأقل، لأن المعاناة الوهمية لا تخفت بسهولة، والكلمات عاجزة في هذا المجال.

وبدأ الحزن يزايل فيرا، فقالت:

- كسينيا ستحبك أيضاً... سأربّيها على حبك. سأجعلها تتذكرك، سأصورك بطلاً في نظرها. لا تضيع الأمل، يا نزار. فالسنين ستمر بسرعة، وأنا سأتعود على الفراق.

- ما الداعي للتعود على الأسوأ؟ - قال نزار، وهو لا يفهم

لماذا تبدو السعادة مستحيلة في أنظار الناس، فيحاولون استمالة بعضهم بعضاً بالحزن وحده.

مل شاغاتايف من المصائب منذ الطفولة. والآن بعد أن حصل على التعليم بدت له تلك المصائب جائرة، فعزم على أن يبني في وطنه، في مسقط رأسه، عالم الاطمئنان والسعادة، وإلا فماذا يمكنه أن يفعل في الحياة؟

- لا تهتمي. - قال وداعب بطن فيرا الكبير الذي يحنو على مولود السعادة المرتقبة - ضعي وليدك بسرعة، وسيفرح بمجيئه إلى العالم.

- ربما لن يفرح. - قالت فيرا مرتابة - ربما سيعاني الأمرَّين.

- لن نسمح بالمعاناة بعد الآن. - أجاب نزار.

- ومن أنتم؟

- نحن - أكد نزار بصوت خافت لا على التعيين. كان لسبب ما يخجل من الكلام بوضوح ويتورد وجهه وكانت الأفكار التي تخطر على باله معيبة.

عانقته فيرا مودعة. وهي تتابع عقارب الساعة. وموعد الفراق يقترب.

- أنا واثقة من أنك ستكون سعيداً، فقلبك أبيض. خذ معك إذن ابنتي كسينيا.

بكت من حبها وعدم ثقتها بالمستقبل. غدا وجهها في البداية أكثر قبحاً، ثم غسلته الدموع، فاكتسى بمسحة أخرى وكأن فيرا تنظر من بعيد بعينين غريبتين.

3

غادر القطار موسكو من زمان، وهو يواصل زحفه منذ عدة أيام. وقف شاغاتايف أمام النافذة، وشاهد الأماكن التي قضى فيها طفولته، وربما كانت تلك أماكن أخرى، لكنها شبيهة بها تماماً. تلك الأرض الخالية العتيقة نفسها، والريح الطفولية نفسها تهز عيدان الأعشاب المترنحة، والفضاء فسيح ممل كروح غريبة كئيبة. كان نزار يتوق في بعض الأحيان إلى النزول من عربة القطار والسير مشياً كطفل تركه الجميع. إلا أن الطفولة والأوقات الماضية مرّت من زمان. وشاهد في محطات القطار الصغيرة في السهوب صوراً للزعماء أعدّها على الأكثر رسامون غير محترفين وألصقت على الأسيجة كيفما اتفق. ولعل هذه الصور النصفية قليلة الشبه بأصحابها. وربما رسمتها يد طفل من الطلائع بشعور صادق. فإن إحدى الصور تمثل شيخاً وأباً طيباً لكل المشردين في الأرض، لكن الرسام حاول دون قصد منه أن يجعل الوجه شبيهاً به هو نفسه ليكون واضحاً أنه الآن لا يعيش وحيداً في هذا العالم وأن لديه أباً وأقرباء، ولذا غدا الفن أقوى من قلة المهارة. وفي الحال يرى المرء وراء إحدى المحطات مختلف الناس يحرثون الأرض ويغرسون النباتات أو يبنون شيئاً لكي يمهدوا مكاناً للحياة

ويوفروا المأوى لمن لا مأوى له. ولم ير شاغاتايف محطات خالية مقفرة لا يعيش المرء فيها إلا منفياً. ففي كل مكان يعمل الإنسان ويزايل فؤاده القنوط الأزلي والتيتم والجنون الحاقد الذي كان يعم الجميع.

تذكّر نزار كلمات أمه: «اذهب بعيداً، إلى الغرباء، واتخذ لنفسك أباً منهم». لقد ذهب بعيداً، وها هو يعود. وجد له أباً في شخص آخر ربّاه ووسع قلبه، وأعاده إلى دياره من جديد ليبحث عن أمه وينقذها إذا كانت لا تزال على قيد الحياة أو يدفنها إذا كانت ميتة ومسجاة على وجه الأرض.

في إحدى الليالي توقف القطار على غير المتوقع وسط السهب المظلم. مضى نزار إلى الفسحة بين بابي العربة. الجو هادئ والقاطرة تلهث بعيداً والركّاب نائمون باطمئنان. وفجأة ندت صيحة عن طير أفزعه شيء ما في ظلمة السهب، وتذكر نزار هذا الصوت عبر السنين وكأن طفولته صاحت مستغيثة وسط صمت الظلام. أصاخ السمع، وكان هناك طير آخر أطلق تغريدة سريعة ولاذ بالصمت. وتذكّر نزار صوت هذا الطير أيضاً، لكنه نسي اسمه، ربما هو عوسق البادية أو الباز. نزل شاغاتايف من العربة، ولمح على مقربة منها شجيرة توجّه نحوها ولمس غصناً وخاطبه قائلاً: «مرحباً يا نبتتي». اهتزت النبتة قليلاً من لمسة الإنسان، ثم عادت إلى ما كانت عليه من سبات ولامبالاة.

ومضى شاغاتايف مسافة أبعد. فتحرك شيء في السهب وصاح. فالسهب لا يبدو صامتاً إلا للآذان التي نسيته. وانحدرت الأرض صوب الوادي، وبدأت أعشاب عالية قاتمة. دخل نزار

تلك الأعشاب تحدوه الذكريات. كانت الأعشاب ترتعش حوله مهتزة من تحت، وقد فرّت منها مختلف الكائنات غير المرئية، كلّ بالوسيلة التي لديه: بعضها يزحف على بطنه وبعضها يركض على قوائمه وبعضها يطير بتحليق واطئ. ولعلها كانت حتى الآن جاثمة ورابضة بهدوء، ولم ينم منها إلا القليل. ولكل منها مشاغل حتى النهار لا يكفي لأدائها على ما يبدو، وربما هي تأسف لتضييع حياتها على النوم. فكانت ناعسة لا غير وقد أسدلت غشاوة على العين لحد النصف، لترى على الأقل نصف الحياة وتسمع الظلمة ولا تتذكر عوز النهار.

نسي نزار نفسه وأحس برائحة الرطوبة، فعلى مقربة من ذلك المكان بحيرة أو بئر. مضى إلى تلك الجهة، فبلغ بقعة مكسوة بأعشاب واطئة ندية شبيهة بخميلة روسية صغيرة. تعودت عيناه على الظلام، فصار يرى بوضوح. وبعد ذلك بدأت بركة القصب. عندما دخل نزار القصب تصايحت البركة وتطايرت وانكمش كل ما فيها من أحياء. وكان الجو دافئاً هناك. لم تختف كل الحيوانات والطيور بمقدم الإنسان. فقد ظل بعضها في مكانه كما يبدو من الأصوات والضجيج. لقد ارتعبت أشد الرعب حتى أسرعت إلى التناسل والتمتع باللذة في انتظار الموت. كان نزار يعرف تلك الأصوات من زمان، وعندما سمعها الآن تنبعث مرهقة واهنة من العشب الدافئ شعر بالعطف على الحياة البائسة التي لا تتنازل عن آخر فرحة لها.

تحرك القطار ومضى بهدوء. كان بوسع شاغاتايف أن يلحق به، لكنه لم يفعل. كل ما تركه في القطار حقيبة بياضات يمكنه أن

يتسلّمها فيما بعد في طشقند. لكن نزار قرر أن لا يتسلّمها، كيلا يلهيه شيء عن قضيته. غفا على العشب وسط السكون ملتصقاً بالأرض كالعادة.

بعد سبعة أيام وصل نزار إلى طشقند ماشياً بأقصر طريق. جاء إلى مكتب لجنة الحزب المركزية حيث كانوا ينتظرونه من زمان. وقال له سكرتير اللجنة إن شعباً بدوياً صغيراً مكوناً من مختلف القوميات يهيم على وجهه في بؤس شديد بمنطقة ساري كاميش (وادي القصب) بين جبل أوست-أورت ودلتا نهر أموداريا (جيحون). هؤلاء القوم خليط من التركمان والقره قلباق والأوزبك والكازاخ والفرس والأكراد والبلوش وأشخاص آخرين نسوا أصلهم. كان هذا الشعب في السابق يقيم أكثر أوقاته في منخفض وادي القصب، ومن هناك يتوجه لممارسة الأشغال الموسمية في تطهير الترع والإرواء بواحة حيوى وفي تاش أوز وحجيلي وكونيا-أورغينش وغيرها من الأماكن النائية. ويعيش في فقر مدقع ويأس شديد جعلاه يعتبر تلك الأشغال التي تستمر بضعة أسابيع في العام خيراً عميماً لأنه يتمكن خلالها من تناول أرغفة الخبز بل وحتى الرز. وأثناء الإرواء كان أبناء هذا الشعب يؤدون وظيفة الحمير، فيديرون بأجسادهم عتلة الناعور الخشبية ليرتفع الماء ويصبّ في الترع. فالحمير مكلفة، تأكل العلف طول العام. أما شعب وادي القصب فيأكل أياماً معدودات ثم ينصرف. ولا يموت كله، ففي العام التالي يعود للعمل من جديد بعد أن يرهقه الانتظار في قعر الصحراء.

وقال نزار شاغاتايف:

- أنا أعرف هذا الشعب. لقد ولدت فيه.

- ولذا نرسلك إليه. - أوضح السكرتير - ما اسمه؟ ألا تتذكر؟

- لم يكن لديه اسم - أجاب شاغاتايف - لكنه أطلق على نفسه اسماً قصيراً.

- ما هو؟

- الجان. وتعني هذه الكلمة عندهم الروح، أو الحياة العزيزة. فلم يكن لدى هذا الشعب شيء غير الروح، لا شيء سوى الحياة العزيزة التي منحته إياها الأمهات عندما ولدنه.

عبس السكرتير وانطبعت على وجهه مسحة من الحزن.

- يعني أن كل ما يملكه هو القلب وحده، عندما ينبض في الصدر...

- نعم، القلب وحده. - وافقه شاغاتايف - الحياة وحدها، فخارج إطار البدن لا يعود له أي شيء. وحتى الحياة لم تكن له، فقد خيّل إليه أنها حياته.

- وهل قالت لك أمك من هم هؤلاء الجان؟

- نعم. إنهم يتامى وهاربون من كل الأرجاء وعبيد وعجزة طاعنون في السن طردهم أسيادهم. وبعد ذلك جاءت نساء ممن اقترفن الخيانة الزوجية والتحقن بهم من شدة الخوف، وجاءت فتيات أحببن أشخاصاً ماتوا فجأة ولم يرغبن في غيرهم، فبقين هناك إلى الأبد. وثمة أشخاص لا يعرفون اللّه وآخرون يستخفّون بهذا العالم ومجرمون... لكنني لا أتذكر الجميع. كنت صغيراً.

- اذهب إلى هناك. وابحث عن هذا الشعب الضائع. وادي القصب خال الآن.

- سأذهب - وافق شاغاتايف - وماذا عليَّ أن أفعل هناك؟ أبني الاشتراكية؟

- وماذا غيرها؟ - قال السكرتير. - شعبك كان في جهنم، فليعش الآن في الجنة، وسوف نساعده بكل ما نستطيع... وستكون مفوضاً عنا. لقد أرسلوا شخصاً من الناحية إلى هناك، ولكن من المستبعد أن يفعل شيئاً، فهو ليس من رفاقنا على ما أعتقد...

ثم زوَّد السكرتير شاغاتايف بتوجيهات مفصَّلة دقيقة وأعطاه شهادة إيفاد، فودَّعه نزار وانصرف.

وعزم على السفر إلى موطنه في نهر أموداريا باتجاه مصبه، فاستقل مركباً قرب شارجوي.

تسلَّم في بريد طشقند رسالة من فيرا تقول فيها إن وليدها يهمّ بالخروج إلى العالم وهو يفكر بشيء ما لأنه غالباً ما يتحرك في أحشائها ويعبّر عن استيائه. وكتبت:

«لكنني ألاطفه وأمسد بطني وعندما أنحني بوجهي عليه أقول له: ماذا تريد؟ إنك تشعر بالدفء والهدوء هناك. وأنا أحاول أن أقلل من الحركة كيلا تنفعل، فلماذا تريد أن تخرج من بطني؟.. الحقيقة أنني تعودت عليه، وأنا أعيش معه دوماً كصديق مثلما أردت أن أعيش معك. أنا أخشى ميلاده، ليس بسبب الألم، بل لأن تلك ستكون بداية الفراق معه إلى الأبد. فإن قدميه اللتين

يطرق بهما الآن ستسرعان للابتعاد عن أمه، وستذهبان أبعد فأبعد عندما ينمو ويترعرع إلى أن يختفي عني تماماً، عن عيني الباكيتين. . . كسينيا تتذكرك، وهي كئيبة لأنك بعيد ولن تأتي قريباً، بل ولا نعرف عنك شيئاً. فهل توفيتَ في مكان ما؟».

بعث نزار بطاقة بريدية إلى فيرا وقال إنه يقبّلها ويقبّل كسينيا في عينيها الملونتين، ولن يمضي وقت طويل حتى يعود بعد أن يبني السعادة في أحد أركان الأرض.

4

استعدّت أربعة مراكب لنقل بضائع التعاونية من شارجوي إلى نوكوس. ولم يستخدم شاغاتايف حقه في الإيفاد، لأن هذا الحق لا يحظى بالاعتراف عادة، فاشتغل معاوناً لملاح نهري في أحد تلك المراكب. واشترط أن يصل إلى واحة حيوى ثم ينزل إلى الشاطئ هناك.

وحلّت أيام الملاحة الطويلة. في الصباح والمساء يتحول النهر إلى سيل ذهبي بسبب شعاع الشمس المائل الذي يخترق الماء عبر الغرين الحي الجاري. كانت هذه التربة الصفراء المتجولة في النهر تبشر بالقمح والزهور والقطن، وتشبه بدن الإنسان. وفي بعض الأحيان يجثم على قمة قصبة طير مجهول زاهي الألوان يتلفّت بدافع من الانفعال ويلمع ريشه في أشعة الشمس المتراقصة ويغرّد بصوت رفيع سيّاب وكأن عهد النعيم قد حلّ لكل الكائنات. ويذكّر الطير نزار بالمرأة الصغيرة ذات العينين الملونتين، كسينيا التي قد تفكر فيه الآن.

بعد أسبوعين ترك شاغاتايف المركب ونزل إلى ضفة واحة حيوى بعد أن تسلّم أجرته مع تشكرات الملاح الأقدم.

أمضى عدة أيام في حيوى ثم توجّه إلى موطنه، وادي

القصب، بطريق الطفولة. ظل يتذكر هذا الطريق حسب المعالِم المنطفئة: الكثبان الرملية بدت الآن أوطأ مما كانت عليه، والقناة أضحل، والدرب إلى أقرب بئر أقصر. الشمس توزع أشعتها مثلما كانت، لكنها الآن على ارتفاع أقل مما في ذلك الزمان: زمان طفولة نزار. أكواخ الطين والخيام المستديرة والحمير والجمال التي صادفها والأشجار على جانبي السواقي والحشرات المحلقة بقيت على حالها دون تغيير، لكنها لا تعير بالاً لنزار وكأنما أصابها العمى بغيابه. سار مستاءً مغتاظاً وكأنه يجوب عالماً غريباً عليه ويحدق بكل ما يحيط به ويتعرف على ما طواه النسيان، لكنه نفسه ظل مجهولاً هناك. فكل كائن صغير أو جماد أو نبات، كما اتضح له، ظل أكثر من الإنسان أنفة وكبرياءً وتحرراً من روابط الود القديمة.

وعندما بلغ نزار شاغاتايف نهر كونياداريا الجاف رأى جملاً مقعياً كالإنسان وقد استند بقائمتيه الأماميتين إلى كومة رمل. الجمل هزيل انخسف سناماه، وراح ينظر وجلاً بعينيه السوداوين كإنسان ذكي حزين. اقترب منه نزار، لكن الجمل لم يعره اهتماماً. كان يراقب حركة الأعشاب الميتة التي تطاردها الريح وينتظر هل تقترب منه أم تمضي في سبيلها بعيداً عنه. تدحرج عود على الرمل واقترب حتى لامس خطم الجمل، فمضغه هذا وابتلعه. وعلى مسافة أبعد تدحرجت كومة كروية من أشواك إبراهيم، وظل الجمل يتابع هذه النبتة الحية الكبيرة بعينين غمرهما الأمل بالطيبة، لكن الأشواك المتدحرجة مرّت به مر الكرام، فأغمض عينيه لأنه لا يعرف كيف يبكي.

تفحّص نزار الجمل من كل الجوانب. كان قد أصابه الهزال من زمان بسبب الجوع والمرض، وتساقط وبره بالكامل تقريباً، ولم تبق منه إلا نتف قليلة، ولذا كان يرتجف من القشعريرة وعدم التعود على العري. ولعل قافلة مرّت بهذه البقعة فخلصته من أحماله وتركته هنا لضعفه، أو أن صاحبه مات فظل الجمل ينتظره حتى استنفد كل ما لديه من احتياطيات الحياة. وعندما فقد القدرة على الحركة ركز البقية الباقية من قواه في قائمتيه الأماميتين واستند إليهما ونهض قليلاً ليرى عيدان الأعشاب التي تقذفها الريح صوبه فيقتات عليها. وعندما تهدأ الريح يغمض عينيه كيلا يُنفق بصره عبثاً وينتابه النعاس، لكنه لا يريد أن يربض على الأرض، لأنه لن يتمكن من النهوض ثانية. ولذا ظل جالساً على الدوام، يقظاً تارة وناعساً تارة أخرى حتى يرغمه الموت على الرقاد أو يجهز عليه أي وحش تافه من وحوش البادية بضربة واحدة من خفه الصغير.

أمضى شاغاتايف وقتاً طويلاً وهو جالس قرب الجمل يراقبه ويتفهمه. ثم حمل له من بعيد حزماً من أشواك إبراهيم وأعطاه إياها ليأكلها. لكنه لم يستطع أن يسقيه ماءً، فلم يكن لديه غير زمزميتين من الماء، إلا أنه يعرف بوجود بحيرات عذبة وآبار صغيرة في مسافة أبعد على امتداد نهر كونياداريا الجاف. ولكن من الصعب على المرء أن يحمل جملاً ويسير به على الرمال.

حل المساء. وظل نزار يطعم الجمل ويجلب له الأعشاب من أقرب الأطراف، حتى وضع المسكين رأسه على الأرض وغط في نوم وادع لحياة جديدة. وبحلول الليل برد الجو، أكل نزار رغيفاً

من كيسه ثم التصق بجسم الجمل كي يتدفأ وراوده النعاس. ابتسم لأن كل شيء بدا له غريباً في هذا العالم الذي كأنما أُعِدّ من أجل لعبة ضاحكة قصيرة. إلا أن هذه اللعبة المتعمدة استطالت وامتدت إلى الأبد، ولم يعد هناك من يرغب في الضحك، ولا من يقوى على الضحك. أرض البادية اليباب والجمل وحتى الأعشاب التافهة المتدحرجة يجب أن تتحلى بالجدية والعظمة وروح النصر، ففي دخيلة الكائنات المسكينة يفور إحساس برسالتها الأخرى، رسالتها السعيدة الضرورية التي لا بدّ منها، فلماذا يا ترى تتعذب وتنتظر شيئاً ما؟ تكوَّر شاغاتايف قرب بطن الجمل وغفا مندهشاً للواقع العجيب.

5

بعد ستة أيام من السير في مجرى كونياداريا وصل نزار إلى وادي القصب. وكان كل هذا الوقت يقتاد الجمل الذي عادت إليه الروح وصار يقوى على المشي، لكنه لا يستطيع أن يحمل الإنسان.

جلس نزار على أطراف الرمال حيث تنتهي الصحراء وتبدأ الأرض بالنزول إلى المنخفض باتجاه جبل أوست-أورت البعيد. الأرض هناك واطئة قاتمة، ولم ير نزار دخاناً أو خياماً في أي مكان. ومن بعيد تلمع البحيرة الصغيرة، ولا شيء غيرها. أخذ حفنة من الرمل. لم يكن قد تغيّر فيه شيء. فالريح كل تلك السنوات كانت تتلاعب به وتنقله إلى الأمام تارة وإلى الوراء تارة أخرى، فشاب الرمل من مكوثه الأبدي في مكان واحد.

ذات مرة اقتادته أمه إلى هنا وأمرته بأن يذهب ويعيش وحيداً. وها هو الآن يعود. واصل سيره مع الجمل إلى منتصف أرض موطنه. الشجيرات البرية تقف كعجائز صغيرات، فلم تنمُ ولم ترتفع منذ أن كان طفلاً صغيراً. ولعلّها الكائنات الوحيدة هنا التي لم تنس شاغاتايف، لأن منظرها لا يستميل الإنسان أبداً، فهو يشبه الخنوع، وليس بوسع المرء أن يصدق بأن هذا المنظر

الخانع يمكن أن ينطوي على اللامبالاة أو النسيان. فهذه الكائنات المعدمة البشعة لا بدّ وأن تعيش على الذكريات وحدها أو على حياة الغير، وليس هناك ما يمكن أن تعيش عليه سوى ذلك.

أمضى نزار عدة أيام وهو يجول في موطن الطفولة هذا بحثاً عن الناس. وكان الجمل يقتفي أثره من تلقاء ذاته خوفاً من الوحشة. يتطلع أحياناً إلى الإنسان أمداً طويلاً بأعصاب متنبهة متوترة، وهو يكاد يبكي أو يبتسم، ويتألم من عجزه عن البكاء أو الابتسام.

كان شاغاتايف ينام الليل في العراء ويأكل آخر ما تبقّى لديه من طعام، ولا يفكر مع ذلك في راحته وسلامته.

توجّه إلى أعماق المنخفض المقفر، عبر قاع البحر القديم، قلقاً مستعجلاً. ورقد مرة واحدة في الطريق نهاراً والتصق بالأرض. شعر بألم مفاجئ في القلب، فنفد صبره ولم تسعفه قواه لمقاومته. واشتد به الحنين إلى كسينيا، فبكى خجلاً من عواطفه مستهجناً إياها. رآها الآن قريبة منه بالتصور والذكريات. ابتسمت له ابتسامة تبعث على الشفقة، ابتسامة امرأة صغيرة لا تستطيع أن تحب إلا روحياً وتمانع في المعانقة وتخشى القبل خشية المرء من كسر عظامه. وكانت فيرا جالسة على مسافة منها تخيط ثياب الطفل وكأنها تقلص المسافة بينها وبين زوجها وتكاد لا تبالي به إطلاقاً لأن في أحشائها يتحرك ويتعذب إنسان آخر أشد ضعفاً وتحبه أكثر. وهي تنتظره وتتوق إلى رؤية وجهه وتخشى مفارقته. لكن ما يهدئ من روعها أنها ستتمكن سنين طويلة من تقبيله

ومعانقته متى تشاء حتى يكبر ويقول لها: «كفاية يا ماما، لا تثقلي عليّ، مللت منك».

رفع شاغاتايف رأسه. وكان الجمل يمضغ عشبة رفيعة عجفاء، وتتطلع سلحفاة صغيرة بعينين سوداوين رقيقتين متعبتين إلى الإنسان الراقد على الأرض. فما الذي يدور في ذهنها الآن؟ ربما خطرت على بالها فكرة سحرية مدفوعة بحب الاستطلاع تجاه هذا البشري المجهول الهائل، وربما كآبة العقل الغافي. وقال لها نزار:

- لن نتركك لوحدك!

كان يهتم بالأحياء اهتمامه بقدس الأقداس. ويحرص على عدم تبديد قلبه، فليس بوسعه أن يتجاهل شيئاً يمكن أن يعزي النفس.

واصل سيره مع الجمل صوب جبل أوست-أورت. وعلى السفح يقيم شيخ منسي. كان ينام الليل في كوخ مطمور لحد النصف على منحدر الهضبة اليابس ويقتات على صغار الحيوانات وجذور النباتات التي يجدها في شقوق السفح الجبلي. كان طاعناً في السن ومعدماً لدرجة جعلته لا يشبه البشر تقريباً. استهلك حياته البشرية من زمان، وأشبع كل غرائزه، ودرس وحفظ كل تفاصيل الطبيعة المحلية بالدقة التي تلازم الحقيقة الكاملة. حتى النجوم، آلاف عديدة من النجوم، يحفظها عن ظهر قلب بحكم العادة، وقد مل من النجوم أيضاً.

اسمه سفيان. يرتدي معطفاً عسكرياً عتيقاً من معاطف الجنود

الروس من عهد حرب حيوى، ويعتمر طاقية ويلفّ قدميه بخرق بدلاً من الحذاء.

عندما رأى نزار خرج للقائه من كوخه الواطئ وراح يحدق في الفضاء بعينين خاويتين.

كان الإنسان والجمل يقتربان منه. عرف سفيان القادم رأساً وشعر في دخيلته بالأسف لأنه لم يبق في العالم مجهول لا يعرفه.

- أنا أعرفك. - قال سفيان - كنتَ صبياً واسمك نزار.

- لكنني لا أعرفك. - أجاب نزار.

- نعم، لا تعرفني. أنت تعيش مثلما تأكل، ما يدخل فيك يخرج منك. أما أنا فكل شيء يبقى في داخلي.

انكمش وجه الشيخ ليتذكر ابتسامة الترحيب. لكن وجهه، حتى وهو هادئ، يشبه الجلد الخالي لثعبان ميت يابس. دهش شاغاتايف ولمس يد سفيان وجبهته. لم يكن أحد يهتم بالحياة والأحياء، لكنّ عهداً آخر قد حل الآن. . .

فقال نزار للشيخ إنه جاء من بعيد من أجل أمه، ومن أجل شعبه، أفلا يزال موجوداً أم أنه انقرض من زمان؟

ظل الشيخ صامتاً ثم سأل:

- هل صادفت أباك في مكان ما؟

- كلا. وأنت، هل تعرف لينين؟

- كلا. - أجاب سفيان - سمعت هذه الكلمة مرة من عابر سبيل قال إن معناها جيد. لكنني لا أعتقد بذلك. لو كان معناها

جيداً فلتأت إلى وادي القصب. كانت جهنم هنا، وأنا أعيش أسوأ من أي إنسان.

- ولذا جئت إليك. - قال شاغاتايف.

وانكمش وجه العجوز من جديد في ابتسامة مرتابة.

- ستتركني قريباً، وسأموت هنا وحيداً. أنت شاب ونبضات قلبك ثقيلة، وستشعر بالضجر.

اقترب نزار من الشيخ وقبّله بشدة وتلهّف كما قبّل فيرا في السابق. ومن الغريب أن طعم شفتي العجوز طعم بشري كشفتي تلك المرأة الشابة البعيدة.

- ستموت هنا من الأسف والذكريات، ففي هذا المكان، كما يقول الفرس، كانت جهنم للأرض كلها...

ودخلا الكوخ الذي يقيم فيه سفيان على تكية من القصب. قدّم الشيخ لضيفه رغيفاً مخبوزاً من جذور أعشاب السفح. ومن كوة المدخل لاحت ظلال السماء المنسحبة على منخفض وادي القصب الذي كانت فيه جهنم في غابر الزمان. كان نزار قد سمع في الطفولة بهذه الأسطورة التي تتناقلها الألسن، وفهم الآن معناها الكامل. في خراسان البعيدة من هنا، وراء جبال كوبيتداغ، وسط البساتين والمزارع يقيم أُرمزد (هرمز) الطاهر إله السعادة والثمار والنساء، وحامي الزراعة وتناسل البشر ومحب الهدوء في بلاد فارس. وإلى الشمال من إيران، وراء سفوح الجبال، تنبسط بادية رملية خالية وتمتد إلى الظلمات، ولا تنمو فيها إلا أعشاب متباعدة، وحتى تلك الأعشاب تقتلعها الريح وتحملها بعيداً إلى الأماكن المظلمة في طوران، حيث تتألم روح

الإنسان ليل نهار. ومن هناك كان أناس جهلة يفرّون إلى بلاد فارس بعد أن يعجزوا عن تحمّل اليأس والموت جوعاً. كانوا يقتحمون خمائل البساتين ومخادع النساء والمدن العريقة ليأكلوا على عجل ويمتعوا أنظارهم وينسوا أنفسهم حتى يبادوا ويتعرض من يبقى منهم على قيد الحياة للملاحقة حتى أعماق البادية. وعندذاك كانوا يختبئون في أطراف الصحراء، في وادي القصب، ويقبعون هناك أمداً طويلاً حتى تستنهضهم الحاجة وذكريات بساتين فارس الشفافة... ومن جديد يظهر فرسان طوران السوداء في خراسان وفيما وراء نهر أتريك وفي أسترآباد لينهبوا ممتلكات الحضر المترهلين البغيضين ويبيدوهم ويتمتعوا بالملذات... ربما كان أحد السكان القدامى في وادي القصب يدعى أريمان، أي الشيطان، وربما اهتاج هذا المسكين بعد المعاناة والأحزان. لم يكن شريراً أكثر من غيره، لكنه كان أتعس الجميع، دأب طول عمره يطرق أبواب الفرس ويعبر الجبال إلى جنة أُرمزد ليأكل ويتلذذ، إلى أن قضى نحبه ودموعه تتساقط على الأرض العقيمة في وادي القصب.

دعا سفيان نزار لينام الليل عنده. ظل صاحبنا يتألم قبيل المنام: تمر الأيام والليالي عبثاً، ويجب الاستعجال لبناء السعادة في قاع جهنم بوادي القصب. نفاد الصبر حجب عنه النوم. فراح يحسب سير الزمن أمداً طويلاً. النجوم في السماء تلمع كبصيص الضمير، والجمل يشخر خارج الكوخ، والعشب الخائر الذي اقتلعته ريح النهار يخدش الرمال حذراً وكأنه يحاول أن يعتمد على نفسه ويسير على سيقانه النحيلة.

وفي اليوم التالي غادر نزار وسفيان المكان ليبحثا عن الضائعين. ولحق بهما الجمل أيضاً، فهو يخشى الوحدة مثلما يخشاها المحب المفترق عن محبوبته.

في طرف وادي القصب لمح نزار مكاناً يعرفه، وينتشر فيه عشب أشيب موات لم يرتفع أعلى مما كان عليه في طفولته. وانهالت عليه الذكريات. هنا قالت له أمه ذات مرة: «لا تخف يا صبي، نحن ذاهبون لنموت»، وأمسكت بيده وقربته منها. واجتمع حولهما كل من كان هناك آنذاك، فتكوّن منهم حشد كبير، ربما من ألف شخص، مع الأمهات والأطفال. عمَّ الصخب والفرح، فقد عزم الشعب على الذهاب إلى حيوى ليقتلوه هناك بأجمعه، بالكامل، كيلا يعيش في العذاب. كان أمير حيوى يضطهد هذا الشعب المستضعف المستعبد من زمان. في البداية أرسل في حالات نادرة رجالاً من فرسان قصره إلى وادي القصب، وفيما بعد صار يرسلهم أكثر، وكانوا يأخذون من أبناء الوادي كل مرة عدة أشخاص يعدمونهم في حيوى بعد فترة أو يزجّون بهم في السجون دون رجعة. الأمير يبحث عن اللصوص والمجرمين والكفرة، إلا أن العثور عليهم كان صعباً. ولذا يأمر بالقبض على كل المجهولين والذين يعيشون خفية لكي يرى أهالي حيوى تعذيبهم وإعدامهم فترتعد فرائصهم من الرعب. في البداية كان أبناء الجان يخافون حيوى، وكان الكثيرون منهم يشعرون بالخور والهلع مسبقاً، فلا يعودون يهتمون بعوائلهم وأنفسهم، ويرقدون على ظهورهم في ضعف متواصل. وفيما بعد استولى هذا الشعور على الجميع. فصاروا يحدقون في الصحراء القفراء متوقعين

وصول أعدائهم الفرسان. كانوا يتحجرون في أماكنهم من هبّة الريح التي تكنس الرمل على قمة الكثيب متصورين أن الفرسان قادمون. وعندما اقتيد ثلث أبناء الوادي أو أكثر إلى حيوى دون رجعة تعوّد الشعب على انتظار هلاكه، وفهم أن الحياة ليست ثمينة كما كانت تبدو لأبنائه في أفئدتهم وفي أمانيهم، حتى صار كل من بقي سالماً يشعر بالضجر لأن الفرسان لم يأخذوه إلى حيوى. إلا أن الفتى يعقوب جانوف وصديقه أورواز باباجان ما كانا يريدان أن يذهبا إلى حيوى عبثاً، إذا كان الموت بحرّية ممكناً. طعنا بالسكاكين أربعة من حراس الأمير وأردياهم قتلى وحرماهم من الأمجاد والحياة دفعة واحدة. أما نزار الصغير فقد هرع إلى أمه، عندما رأى المسلحين الغرباء، ليأخذ الحديدة الحادة التي خبأها من أجل اللعب، لكنه عاد بعد فوات الأوان، فالحراس ماتوا بدون حديدته. واختفى أورواز ويعقوب، حيث امتطيا حصانين من أحصنة الجنود القتلى، فيما توجّه باقي القوم بحشد كبير إلى حيوى سعداء وادعين. كانوا مستعدين آنذاك بالقدر نفسه لتدمير الإدارة أو لمفارقة الحياة هناك بلا أسف، لأن البقاء على قيد الحياة لم يكن بالنسبة لأي منهم فرحة أو ميزة، ولأن الميت لا يشعر بالألم. سار المنشد في المقدمة يرتل أغنيته، وسار جنبه سفيان الذي كان شيخاً حتى في ذلك الحين. تطلّع نزار الصغير إلى أمه ودهش لأنها مرحة هذه المرة مع أنها متوجهة إلى الموت، وكان الباقون يسيرون بلهفة أيضاً. وبعد عشرة أو خمسة عشر يوماً شاهد أبناء الوادي برج حيوى. كان الطريق إلى حيوى بطيئاً محفوفاً بالصعاب، إلا أن صعوبات وعوز

الحياة الجامدة تتطلب أيضاً قلباً يتحمل، ولذا لم يشعر السائرون بالانفعال من التعب والإرهاق. وعلى مقربة من حيوى طوقت مجموعة صغيرة من خيالة الأمير الشعب القادم، لكن أبناء الوادي عندما رأوا الخيالة أنشدوا الأغاني مرحين مبتهجين. غنّى الجميع، حتى أكثرهم صمتاً وأقلهم مهارة، ورقص الأوزبكيون والكازاخيون في المقدمة، وعزف شيخ روسي تعيس ألحاناً على الهارمونيكا، ورفعت أم نزار يديها وكأنها تستعد لرقصة خفيفة، وكان نزار نفسه ينتظر باهتمام كيف سيقتلهم الجنود جميعاً وسيقتلونه معهم الآن. وأمام القصر وقف حراس بدناء شجعان يحمون الأمير من الجميع. كانوا يتطلعون بدهشة إلى القوم السائرين أمامهم برؤوس مرفوعة دون أن يخشوا الرصاص والحديد وكأنهم شعب كريم سعيد. فيما كان حراس القصر مع الفرسان السابقين مكلفين بأن يطوقوا شعب وادي القصب ويقتادوه إلى أقباء السجون، إلا أن من الصعب معاقبة المبتهجين، لأنهم لا يفهمون معنى الشر.

اقترب أحد أعوان الأمير من شيوخ وادي القصب وسألهم عما يريدون وما سبب فرحتهم.

فأجابه أحدهم، ربما هو سفيان أو شيخ آخر:

- عوّدتنا أمداً طويلاً على الموت، فتعوّدنا وجئنا الآن جميعاً، فأعطنا الموت بسرعة ما دمنا لا نزال متعودين عليه وما دام الشعب يبتهج!

انصرف معاون الأمير ولم يعد. وظل الخيالة والجنود المشاة حول القصر دون أن يمسّوا أبناء الوادي، فهم لا يقتلون إلا من

يخاف الموت، وما دام الشعب كله أقدم على الموت قربهم بمرح وسرور فالأمير وكبار جنده لا يعرفون كيف يفهمون هذا التصرف وماذا عليهم أن يفعلوا. ولم يفعلوا شيئاً، فواصل القادمون من الوادي سيرهم وسرعان ما بلغوا السوق. الباعة يعرضون أطعمتهم، وشمس المساء التي تلمع في السماء تنير البصل الأخضر والشمام والبطيخ الأحمر والعنب في السلال والقمح الأصفر والحمير الناعسة من التعب واللامبالاة.

وسأل نزار أمه آنذاك:

- متى يأتي الموت؟ أريده.

لكن الأم نفسها لا تدري ما الذي سيحدث الآن. فهي ترى الجميع أحياءً وتخشى العودة ثانية إلى وادي القصب والعيش فيه من جديد إلى الأبد. في سوق حيوى أخذ أبناء الوادي مختلف الثمار وأكلوا حتى الشبع بلا نقود، بينما وقف الباعة صامتين دون أن ينهروا أو يضربوا هؤلاء الناس المتوحشين. أكل نزار ببطء وكان يتطلع حواليه منتظراً القتل، وتمكن من التهام شمامة واحدة فقط. وبعد الأكل اكتأب أبناء الوادي لأن ابتهاجهم تبدد والموت لم يأت. ثم اقتادت جولشتاي ابنها إلى الصحراء وعاد الجميع إلى مكان إقامتهم القديم.

عاد نزار وأمه إلى وادي القصب، إلى الأعشاب الخشنة الشيباء التي يقف صاحبنا الآن مع سفيان بينها. وآنذاك جلس مع أمه في هذا الموضع ليأخذ قسطاً من الراحة فقالت له:

- تعال نعيش من جديد، فنحن لم نمت!

- نعم، أنا وأنت سالمان. - وافقها نزار - اسمعي يا ماما، سنعيش ولا نفكر بشيء وكأننا غير موجودين.

- الذي يموت في بطن أمه أفضل حالاً. - قالت جولشتاي.

- في بطنك؟ - سألها نزار - فلماذا لم تتركيني هناك؟ كنت سأموت إذن ولا يبقى لي وجود، وتعيشين أنت وتأكلين وتفكرين بي وكأني حي.

تطلعت جولشتاي إلى ولدها، وانعكس على وجهها، آنذاك، ظل السعادة والإشفاق.

لمس نزار الآن تلك الأعشاب العتيقة التي ظلت تعيش دون تغيير لأنها ماتت قبل ميلاده، لكنها لا تزال متماسكة، كما لو كانت حية، بجذورها العميقة الميتة. وكان سفيان يفهم أن انفعالات الحياة تعتمل في نفس شاغاتايف في هذه اللحظات، لكنه لم يبد إهتماماً بذلك. فهو يعلم أن الإنسان يجب أن يملأ روحه بشيء ما، وإذا لم يكن هناك ما يملأها به فالقلب يجتر دمه بنهم شديد.

بعد أربعة أيام شعر سفيان ونزار بجوع شديد جعلهما يريان أحلام المنام في اليقظة، وهما سائران على الأقدام في وضح النهار. ولم يتركهما الجمل، لكنه يسير بعيداً عنهما، حيث يصادف في طريقه ما يقتات عليه من أعشاب. وكان سفيان ينظر إلى أحلامه السابحة دون أمل، بينما يبتسم لها نزار تارة ويتألم تارة أخرى. وعندما بلغا رافد داريااليك قرب مانغيرشاردار توقفا لقضاء الليل، وخلط سفيان ماء الضفة ليكون أكثر تركيزاً وتعكراً

وأوفر غذاءً. وبعد أن شرب الرجلان رقدا في كهف صغير لينسى البدن أنه حي وينقضي الليل على نحو أسرع. وعندما استيقظ نزار في الصباح وجد الجمل ميتاً. رآه مسجى على مسافة قريبة بعينين متحجرتين وقد تخثر الدم على حز في رقبته. كان سفيان ينبش في أحشائه، وكأنها كيس مملوء بالطيبات، وينتقي منها قطعاً نيئة بدم نظيف ويأكلها ليسد بها رمقه. زحف شاغاتايف نحو الجمل، وكانت رائحة الدفء والشبع تفوح من جسمه المشقوق، والدم لا يزال يقطر ويسيل في شعابه البعيدة، فالحياة تموت ببطء. وبعد أن شبع الرجلان ناما من جديد راضيين، ولم يستيقظا إلا بعد وقت طويل.

ثم واصلا سيرهما نحو الأهوار، إلى مصب أموداريا، بعد أن أخذا إحتياطياً من لحم الجمل. إلا أن نزار يأكله على مضض، فمن الصعب عليه أن يقتات على لحم ذلك الحيوان الكئيب الذي يتصوره هو أيضاً من أفراد المجتمع البشري.

6

انتشر الجان بين الشجيرات والبردي والقصب على امتداد مصب أموداريا. قبل زهاء عشرة أعوام وصل هذا الشعب إلى ذلك المكان وتوزع للسكنى بين النباتات البليلة. في بادئ الأمر كان البعوض ينهش البشر فيجعلهم يحكّون جلودهم حتى يبلغوا العظام، لكن دمهم تعوّد بمر الزمن على سم البعوض وصار يفرز مضاداً له يجعل البعوضة تتهاوى خائرة على الأرض حالما تلسع الإنسان. ولذا فالبعوض الآن يخشى هؤلاء الناس ولا يقترب منهم أبداً.

بعض أبناء الشعب أقاموا على انفراد، شخصاً شخصاً، كيلا يتعذبوا من أجل الآخرين عندما لا يجدون ما يؤكل، وكيلا يبكوا عندما يموت الأقرباء. وفي حالات نادرة كانوا يعيشون في عوائل. وفي هذه الحالة لا يمتلكون شيئاً سوى حب بعضهم البعض. فهم لا يمتلكون طعاماً جيداً ولا أملاً في المستقبل ولا أي نوع من الفرحة التي تسعد البشر، فضعفت قلوبهم حتى لم يبق فيها مكان إلا للحب والتعلق بالزوج أو الزوجة، تلك العاطفة الأبدية التي هي أكثر العواطف عجزاً وبؤساً.

قضى سفيان ونزار يومين وهما يخوضان في الأرض البليلة

بين القصب المعتم، حتى شاهدا كوخاً من البردي يقيم فيه الملا الضرير شيركيزوف وتسهر عليه وتطعمه ابنته آيديم التي هي في حوالى العاشرة من العمر. الملا عرف سفيان من صوته، ولكن ما كان لديهما موضوع للحديث. جلسا قبالة بعضهما البعض على تكية من القصب وشربا الشاي المعمول من جذور القصب نفسه بعد فرمها وتجفيفها، ثم ودعا بعضهما البعض، وسأل سفيان أثناء التوديع:

- ما الأخبار؟

- لا أخبار عندنا. الحياة تجري على وتيرة واحدة. - أجاب الملا شيركيزوف - زوجتي العزيزة جيون ماتت غرقاً؟

- لماذا غرقت زوجتك الكريمة؟

- عافت نفسها الحياة... خذ ابنتي آيديم وأعطني بالمقابل حمارة شابة أضاجعها في الليل كيلا يبقى مجال للأفكار والأرق.

- أنا فقير معدم، وليس عندي حمارة. - أجاب سفيان - بادل ابنتك بعجوز وضاجعها، فكله سواء بالنسبة لك.

- سواء، فعلاً. - وافقه الملا شيركيزوف - لكن العجائز سرعان ما يمتن ولا يكفين الرجل.

- هل سمعت؟ وصلنا نزار من موسكو. أمروه أن يساعدنا لكي نعيش حياتنا بشكل جيد.

- جاءنا أربعة أشخاص قبل نزار. - رد شيركيزوف - لسعهم البعوض فارتحلوا. أنا أعمى، مصيري هو الظلام. ولن تتحسن حالي.

وتدخّل نزار فقال:

- أنت ترتاح حتى للحمارة والعجوز. سعادتك كالتعاسة.

فأجابه الملا:

- الوقت مع الزوجة يمر دون أن تشعر به.

كانت الصبية آيديم جالسة على الأرض بساقين متباعدتين تسحق جذور القصب بحجر صغير على حجر كبير. فهي ربة البيت هنا، وهي تعدّ الطعام. وبالإضافة إلى بصيلات القصب وجذوره قرب الصبية ثمة عدة حزم من أعشاب المستنقعات والبراري وعظم معروق نظيف لحمار أو جمل عثرت عليه في مكان ما تحت الرمال وتنوي طبخه ليعطي طعماً للحساء. القدر يستقر بين قدمي آيديم مغسولاً نظيفاً، وهي تلقي فيه بين حين وآخر ما تعدّه يداها ويصلح لطبخ حساء الغداء. لم تُبدِ الصبية اهتماماً بالضيفين، فعيناها مشغولتان بأفكارها، ولعلها كانت تعيش على حلم خفي خاص، أما العمل المنزلي فتؤديه دون وعي تقريباً، وقد تجرد فؤادها المنطوي على ذاته عن كل ما يحيط بها.

وطلب نزار من صاحب البيت:

- اسمح لابنتك بالذهاب معي!

- لا تزال صغيرة، فماذا تفعل بها؟ - قال الملا شيركيزوف.

- وسأحضر لك أخرى، عجوزاً.

- أحضرها بسرعة. - وافق شيركيزوف.

أخذ شاغاتايف يد آيديم، فتطلعت إليه بعينين سوداوين ينبعث منهما بريق يبهر الأبصار وكأنها لا ترى شيئاً. تطلعت إليه مرتعبة لا تفهم ما يريد. وقال لها نزار:

- تعالي معي.

مسحت البنت يديها بالأرض لتنظفهما ونهضت ومضت تاركة كل أشغالها لا تلوي على شيء وكأنها عاشت هنا دقيقة واحدة وليس لها أب حي تتركه وحيداً. والتفت نزار إلى سفيان العجوز:

- بالنسبة لك سواء، تذهب معي أم لا. أليس كذلك؟

- سواء - أجاب سفيان.

طلب منه نزار أن يبقى مع الضرير ليساعده في إعداد الطعام والعيش حتى يعود إليهما.

ومضى مع الصبية في درب ضيق شقه الناس وسط أحراش القصب. كان يريد أن يرى كل سكان هذا البلد المعشوشب، كل الشعب الذي اختبأ هنا هرباً من نوائب الدهر. ولم يسأل نزار عن أمه من سفيان ولا مرة. كان يأمل أن يجدها على قيد الحياة ويقابلها فجأة ويرى أنها تتذكره، أما الموضع الذي نثرت عظامها فيه فالوقت يكفي للعثور عليه.

سارت آيديم طائعة وراء نزار على طول الطريق البعيد. أحراش القصب تنتهي في بعض الأحيان، فيمشي نزار والصبية على ترسبات الرمل والغرين الخالية ويصادفان بحيرات ضحلة ويتحاشيان الشجيرات العتيقة الشائكة ويصلان من جديد إلى أحراش القصب، فيجدان الممر. كانت آيديم صامتة، وعندما أخذ التعب منها مأخذه حملها نزار على كتفيه ممسكاً بركبتيها، بينما عانقت هي رأسه. وبعد ذلك توقفا ليرتاحا ويشربا الماء من غدير رملي صاف، والبنت تلقي على نزار نظرات بشرية غريبة وعادية حاول هو، من جانبه، أن يفهمها. ربما تعني تلك

النظرات: خذني إليك، احتضني، وربما: لا تخدعني ولا تعذبني فأنا أحبك وأخشاك. أو أن تلك الفكرة الطفولية في العينين السوداوين البراقتين تجسيد للحيرة: ما سبب هذا العذاب، وأنا بحاجة إلى السعادة؟

أجلس نزار الصبية في حضنه وأخذ يمسد شعرها. وسرعان ما غفت بين ذراعيه مطمئنة تثير الشفقة، فهي ولدت من أجل السعادة والرعاية.

حل المساء. وحال الظلام دون مواصلة السير.

اقتلع نزار أعشاباً عمل منها فراشاً ليناً دافئاً يحمي الصبية من برد الليل، ووضع هذا الإنسان الصغير عليه ورقد جنبه يغطيه ويدفئه. الحياة ممكنة دوماً والسعادة يسيرة المنال.

رقد شاغاتايف دون أن يغمض له جفن. فلو غفا لتكشَّف جسد آيديم العاري ولتجمدت من البرد. ملأ الليل البهيم الطويل كل ما في السماء والأرض: من أصول الأعشاب حتى نهاية العالم. اختفت الشمس وحدها، فيما تفتحت كل النجوم ولاح درب التبانة مهشماً متململاً وكأن حملة ما مرت به قبل حين.

7

أنار ضوء الفجر آيديم ونزار النائمين على حشية العشب. وقد دس الرجل يده تحت رأس الصبية كي تغفو برفق دون أن تبتلّ، وحجب عينيه بيده الأخرى تخلصاً من الصباح. جلست عجوز مجهولة قرب النائمَيْن وراحت تتطلع إليهما مذهولة. لمست بالكاد شعر نزار وفمه ويديه وتشممت ثيابه وتلفتت حواليها خشية أن يشوش عليها أحد. ثم سحبت يده برفق من تحت رأس الصبية كيلا يهتم بأي شخص ولا يحب أي إنسان الآن، فيبقى معها وحدها. احدودب ظهرها من زمان، وعندما تنظر إلى شيء يكاد وجهها يلامس الأرض وكأنها عمياء تبحث عما فقدته. تفحصت كل ما يرتديه نزار وتلمست بيديها السيور والأشرطة على البنطال والجزمة ودعكت في راحتها قماش قمصلته وبللت إصبعها بلعابها ومسحت الغبار عن حاجبيه الأسودين. ثم هدأ روعها، فرقدت ورأسها عند قدميه سعيدة منهوكة وكأنها عاشت حتى آخر العمر ولم يبق لديها ما تفعله، وكأنما وجدت سلوتها الأخيرة في هذه الجزمة المتهرئة من الداخل بسبب العرق والملوثة بغبار الصحراء وأقذار المستنقعات. غفت العجوز غفوة خفيفة أو لعلها غطت في نوم عميق، لكنها سرعان ما نهضت من جديد. وكان نزار وآيديم

لا يزالان نائمين. فالأطفال ينامون طويلاً، حتى الشمس والفراشات والأطيار لا توقظهم.

- صح النوم. عجّل! - قالت العجوز وهي تحتضن نزار بكلتا يديها.

فتح عينيه. وانهالت العجوز بالقبل على رقبته وصدره من خلال الثياب وعلى يديه، ووجهها يزحف على بدنه ويتفحص كل شاردة وواردة فيه، وكأنها تريد أن تتأكد مما إذا كانت كل أجزائه سليمة وما إذا كان قد مرض جزء منها وفقد أثناء الفراق.

- لا داعي لذلك يا ماما. - قال نزار.

نهض أمامها، لكنها كانت محدودبة الظهر لدرجة حالت دون رؤية وجهه، فسحبته إلى أسفل من يديه، فانحنى وجلس قبالتها. كانت جولشتاي ترتعش من الشيخوخة أو من حبها لابنها، لكنها لم تستطع أن تقول له شيئاً وظلت تتلمس بدنه بيديها وتتحسس سعادتها مرتعبة متشككة تخشى أن تتبدد.

وتطلع نزار في عيني أمه، فهما الآن باهتتان غير متعودتين عليه، ولا تومض فيهما قوتهما القاتمة اللماعة السابقة. وجهها النحيل الصغير غدا متوحشاً حقوداً من الحزن المتواصل، أو من جهد الحفاظ على البقاء عندما تنتفي ضرورة الحياة وينتفي هدفها وعندما يتوجب عليها هي أن تتذكر قلبها كي ينبض وترغمه على العمل. وإلا فهي تتعرض للموت كل لحظة غير منتبهة لواقع حياتها وناسية أنها تعيش وأن عليها أن تسعى لاشتهاء شيء ما كيلا تقرأ على نفسها السلام.

عانق نزار أمه. وقد غدت خفيفة شفافة كبنت صغيرة. ينبغي لها أن تعيش الحياة من البداية كطفل، لأنها أنفقت كل قواها على الصبر ومكافحة العذاب الدائم، ولم تكن لديها أبداً بقية من القلب خالية من المصائب لكي تشعر بنعمة وجودها، ولم يتسنَّ لها الوقت كي تتفهم نفسها وتتعود عليها، فقد داهمتها الشيخوخة والنهاية.

- أين تقيمين يا ماما؟ - سألها نزار.

- هناك. - أشارت جولشتاي بيدها.

رافقته عبر أعشاب قصيرة، عبر قصب متباعد، حتى بلغا قرية صغيرة في فسحة بين أحراش القصب. ورأى شاغاتايف أكواخ القصب وعدة صرائف وسقائف مضفورة من شرائح القصب أيضاً. عدد المنازل عشرون أو يزيد. ولم ير نزار في هذه القرية كلباً أو حماراً أو جملاً. وحتى الدواجن لا تسير طليقة على الأعشاب.

قرب الصريفة التي في الطرف جلس رجل عار يتدلى جلده غضوناً وطيات كثياب بالية متعبة. وفي حضنه عيدان قصب يقلّبها ويختار منها ما يصلح لصنع الأدوات المنزلية أو الحلي. لم يدهش الرجل لمجيء شاغاتايف ولم يردّ حتى على التحية. كان يتمتم مع نفسه ويتصور ما لا يراه الآخرون ويلهي فؤاده بسلوى ذاتية خفية. وسأل نزار أمه:

- كل شعبنا يقيم هنا أم يوجد آخرون؟

- نسيت يا نزار، لا أدري. - أجابته جولشتاي وهي تجرجر

قدميها خلفه بجهد كبير ورأسها يتدلى كعبء ثقيل. - هناك آخرون، عشرة أشخاص يقيمون بين القصب الممتد حتى ساحل البحر، كانوا يعيشون في السابق وقد حان الوقت لوفاتهم، لعلهم ماتوا، فلا أحد يأتي إلينا.

وانتهت الصرائف والأكواخ. وبدأ القصب من ورائها. توقف نزار. وقد تجمّع هنا كل شيء بالنسبة له: الأم والموطن والطفولة والمستقبل. أضواء الضحى تنير المكان والقصب أخضر باهت والصرائف رمادية بنية بالية في فسحة مكسوة بأعشاب قصيرة متباعدة والسماء من فوق مغمورة بنور الشمس ومشبعة بأبخرة المستنقعات الندية وبغبار الواحات الجافة الأصفر وهي تضطرب لريح عالية لا يسمع لها دوي. إنها سماء عكرة معذبة حتى لكأن الطبيعة، هي أيضاً، مجرد قوة كئيبة يائسة.

تلفَّت نزار حواليه وابتسم لكل أطياف الطبيعة المملة دون أن يعرف ماذا يفعل. وفوق مجاهل القصب، في الأفق الفضي، لاح سراب متجمد لعله بحر أو بحيرة تعوم فيها السفن، ولاحت أعمدة لماعة بيضاء لمدينة بعيدة على الشاطئ. وقفت الأم صامتة قرب ابنها وبدنها منحنٍ إلى أسفل.

كانت تعيش في صريفة على التربة الطينية الناشفة، بلا زوج ولا أقرباء. وفي أرضية منزلها حصيرتان من شرائح القصب، تنام على إحداهما وتلتحف الأخرى. ولديها أيضاً قِدر من الحديد الزهر للطعام وإبريق من الفخار. وعلى العارضة يتدلى حجاب فتوتها والخرقة التي لفَّت بها نزار عندما كان رضيعاً. كوشمات توفي قبل ستة أعوام تقريباً ولم يخلف غير نصف سروال (النصف

الثاني استهلكته جولشتاي في ترقيع تنورتها) وليفة كان يمسح بها العرق والأقذار من بدنه عندما يذهب أحياناً إلى الواحات للعمل.

أم نزار تعيش هنا وحيدة، كما أسلفنا. وقد أدهشها أن نزار لا يزال حياً، لكنها لم تدهش لعودته. وهي لا تعرف بوجود حياة أخرى في هذا العالم غير حياتها، وتعتبر كل ما على وجه البسيطة متماثلاً متشابهاً.

ذهب نزار لإحضار الصبية آيديم. أيقظها من النوم وجاء بها إلى صريفة أمه. فيما مضت جولشتاي لتنتزع جذور الأعشاب وتصطاد السميكات بسلة من القصب في الغدران وتبحث عن أعشاش الطيور بين الحشائش لتجمع البيض أو الفراخ لإعداد الطعام. وعلى العموم توجهت إلى الطبيعة لتستجدي منها ما يصلح لإدامة الوجود. عادت قبيل المساء وطفقت تعدّ الغداء من الأعشاب وبصيلات القصب والسميكات. لم تعد تهتم بوجود ابنها قربها ولم تتطلع إليه إطلاقاً ولم تتلفظ بأية كلمة، وكأن مداركها ومشاعرها غارقة في تأملات عميقة متواصلة تستنفد كل قواها. تلاشى الإحساس البشري القصير بالفرحة للقاء ابنها الحي الذي كبر، وربما لم يكن ذلك الإحساس موجوداً أصلاً، وكل ما كان هو الاستغراب من هذا اللقاء النادر.

ولم تسأل جولشتاي نزار حتى عما إذا كان جائعاً أم لا. ولم تسأله عما ينوي القيام به في موطنه، في قرية القصب.

تطلّع إليها نزار ورأى كيف تتحرك في عملها المعتاد، وخيّل إليه أنها نائمة في الحقيقة، وتتحرك في أحلامها وليس في واقع

الحال. عيناها شاحبتان فاترتان لم تبق فيهما قوة للبصر، وليس فيهما أي تعبير، كما في عينين ضريرتين صامتتين. فيما تدل قدماها الكبيرتان المتحشفتان على أنها عاشت كل هذه المدة حافية، وثوبها مجرد تنورة قاتمة تمتد حتى الرقبة بشكل زبون ومرقعة بمختلف الخرق، بل وحتى بقطع لباد خيطت إلى أذيالها. لمس نزار ثوب أمه. وهي ترتديه على عريها، بلا قميص تحتاني. ولم تعد من زمان تشعر بالبرد في الليل أو في الشتاء، كما لا تعاني من الحر، فقد تعودت على كل شيء.

خاطب نزار أمه، فانتبهت إليه وفهمته. وأخذ يساعدها بإشعال النار في الوجاق الذي حفر بشكل كهف صغير تحت جدار القصب المائل. وكانت آيديم تنظر إلى الغريبين بعينين سوداوين طاهرتين محتفظتين بالقوة البراقة لطفولتها ووجلها الذي هو تجسيد للكآبة، لأنها طفلة تنشد السعادة وليس الجلوس في عتمة الصريفة والتفكير في ما إذا كانوا سيعطونها طعاماً أم لا. وتذكّر نزار أين رأى مثل هاتين العينين، ولكن بقدر أكبر من الحيوية والمرح والحب. كلا، ليس في هذه الأنحاء، وتلك المرأة لم تكن تركمانية أو قرغيزية. لقد نسيته من زمان، وهو أيضاً لا يتذكر اسمها، ولا يمكنها أن تتصور مكان وجوده وماذا يفعل الآن. موسكو بعيدة، وهو هنا وحيد تقريباً يحيط به القصب والأهوار وأكواخ واهية من نباتات ميتة. شعر بالحنين إلى موسكو وإلى العديد من المعارف، إلى فيرا وكسينيا، وعزم أن يستقل حافلة الترام في المساء ليحل ضيفاً على بعض الأصدقاء. إلا أنه سرعان ما انتبه إلى نفسه وفهم وضعه الحالي وقال بصوت

مسموع: «كلا، موسكو موجودة هنا أيضاً!». وابتسم وهو يتطلع في عيني آيديم. فشعرت بالخجل ولم تعد تنظر إليه.

طبخت الأم لنفسها طعاماً خفيفاً في القِدر الحديدي وأكلته عن آخره، ثم مسحت القِدر بأصابعها من الداخل ولحستها كي تشبع. تابعتها آيديم باهتمام، ورأت كيف تأكل وكيف يمر الطعام إلى الداخل قرب عروق حنجرتها الهزيلة، لكنها كانت تتطلع إليها بدون فهم أو حسد. تتطلع بالدهشة وحدها وبشعور من العطف على العجوز التي تلتهم الأعشاب مع الماء الساخن. غفت جولشتاي بعد الطعام على تكية قصب مخسوفة. وفي تلك الأثناء حل المساء وتبعه الليل.

8

انقضى اليوم الأول من حياة نزار شاغاتايف في موطنه. في البداية أشرقت الشمس وكان يمكن الأمل في شيء، ثم احلولكت السماء ولاحت من بعيد نجمة واحدة باهتة وضئيلة.

صار الجو رطباً كالحاً. ولاذ شعب الجان بالصمت في بلد القصب، ولم يسمع شاغاتايف له صوتاً. جمع أعشاباً في أقرب فسحة وعمل منها فراشاً في صريفة أمه ووضع آيديم في هذا الموضع الدافئ لتنام هي الأخرى.

ثم خرج لوحده. وصل إلى رافد خال لا يكاد الماء يجري فيه من روافد أموداريا ثم عاد. خيّم ظلام الليل الدامس على هذا البلد. وكانت فسائل القصب القصيرة الفتية تتململ في أسفل النبتات الشائخة العالية، كما يتململ الأطفال أثناء النوم. البشرية تظن أن الصحراء خالية قفراء، لا شيء فيها غير الراعي الحزين يراوده النعاس في ظلام البقاع البرية المملة، وأمامه يربض وادي القصب القذر الذي اجتاحته كارثة ذات مرة، لكنها انتهت وانقرض المعذبون بانتهائها. كلا، الحقيقة غير ذلك. فهنا، في أموداريا، في وادي القصب، عالم كامل، صعب عسير، يواجه إشكالية المصير.

أنصت شاغاتايف. سمع أحدَهم يتكلم عن قرب بلهجة سريعة ساخرة، ولا مَن يجيبه. اقترب نزار من صريفة تهادت إلى مسامعه منها أنفاس أناس نيام يتقلبون في مضاجعهم مضطربين.

وجاء صوت شيخ ناعس:

- ارفع الوبر من الأرض وضعه في عبي، اجمعه بسرعة ما دامت الجمال تبدل وبرها...

مال شاغاتايف على جدار القصب. كان الشيخ يهذي هامساً، فلا تُسمع كلماته بوضوح. رأى في المنام حياة ما ونشاطاً دائمياً. وأخذ هذيانه يخفت وكأنه يبتعد.

- دوردي، يا دوردي - تعالى صوت امرأة. تململت فانبعث صرير من الحصيرة تحتها. - دوردي، لا تهرب مني، فقد تعبت ولن ألحق بك... قف، لا تعذبني، سكيني حادة، سأذبحك بسرعة، فلا تمانع.

وخيّم الصمت من جديد، وناموا وادعين.

- دوردي! - ناداه شاغاتايف بصوت خافت من خارج الصريفة.

- ماذا؟ - جاء من الداخل صوت الشيخ الذي كان يهذي.

- هل أنت نائم - سأل شاغاتايف.

- نعم. - أجاب دوردي.

تذكّر نزار الشيخ دوردي هذا في غمرة طفولته. كان هناك في ذلك الزمان رجل نحيل من قبيلة الأيومودبين يترحل مع زوجته ويقتات على السلاحف. وحين ينتابه الملل يتردد على وادي

القصب، فيجلس صامتاً بين الناس يستمع إلى أحاديثهم ويبتسم مرتاحاً لفرحة خفية تكتنفه من تلك اللقاءات. ثم يذهب من جديد إلى البادية ليصيد السلاحف ويشغل باله بالتأمل والتفكير. وكانت المرأة التي تشعر بالوحدة (خيّل لنزار آنذاك أنها عجوز أيضاً) تسير في أثر زوجها حاملة على ظهرها كل ممتلكات الأسرة. وكان نزار الصغير يرافقهما حتى البادية ويشيعهما بنظراته أمداً طويلاً حتى يختفيا في الضوء اللامع ويتحولا إلى رأسين سابحين بلا بدنين، ثم إلى زورق، وطائر، وسراب.

وعلى مقربة من هناك صريفة أخرى من قصب مبنية بشكل خيمة مستديرة. وقد أقعى جنبها كلب صغير الحجم دهش نزار له. فهو لم يشهد أية حيوانات أليفة هنا. تطلّع الكلب الأسود إلى نزار وفتح فمه وأغلقه مراراً لينبعث منه نباح غاضب، ولكن دون جدوى. فنباحه بلا صوت. وكان في الوقت ذاته يرفع قائمته الأمامية اليمنى تارة واليسرى تارة أخرى ليستثير في نفسه الهياج ويهجم على الغريب. لكنه لا يستطيع. انحنى شاغاتايف على الكلب فاختطف هذا الأخير يده بفكيه، ودعكها بلثتيه الخاليتين، فليس فيهما ولا ناب واحد. لمس نزار الكلب من أضلاعه فوجد قلبه الضئيل القاسي ينبض بشدة، ولمعت في عيني الكلب دموع اليأس والقنوط.

وفي الصريفة المستديرة كان شخص يضحك بصوت وادع مطمئن. رفع نزار ستارة الجريد ودخل. الجو هادئ خانق، ولا شيء يرى هناك. انحنى نزار إلى الأمام باحثاً عمن يقيم في هذا المكان. أرهقه الهواء الساخن الثقيل، فراح يبحث بيدين واهنتين

عن الشخص المجهول إلى أن وقعت يداه على وجه انكمش وتقلص في الحال من لمس أصابع نزار، وانبعث من فم المجهول سيل دافئ من الكلمات، كل كلمة مفهومة على حدة، لكن العبارات المركبة منها ليس لها معنى إطلاقاً. استمع نزار إلى هذا الإنسان مندهشاً وهو يمسك وجهه بين يديه ويحاول أن يفهم ما يقول، ولكن دون جدوى. كفَّ الجالس في الصريفة المستديرة عن الكلام وأطلق ضحكات قصيرة كإنسان عاقل ثم عاد إلى الثرثرة من جديد. وخيّل لنزار أنه يضحك من كلامه ومن عقله الذي يفكر الآن بشيء، لكنّ ما يفكر به ليس له أي معنى. ثم أدرك نزار حقيقة الأمر وابتسم هو أيضاً، فالعبارات غدت غير مفهومة لأنه لم يكن فيها إلا الأصوات، وهي لا تحتوي على اهتمامات أو مشاعر أو حماسة وكأن هذا الإنسان شبح بلا قلب يبعث نأمة تدل عليه.

- خذ تعال اذهب إلى أوست-أورت وارفع شيئاً واحمله لي سأضعه في صدري. - قال الرجل ثم قهقه من جديد.

كان عقله لا يزال حياً. ولعله يضحك في دماغه مرتعباً لا يفهم أن القلب ينبض والأنفاس تتردد، ولكن ليست هناك رغبة في شيء ولا اهتمام بشيء، حتى الوحدة المطبقة وظلام الليل في الصريفة والشخص الغريب - كل ذلك لا يحرك ساكناً فيه ولا يستثير الخوف أو الفضول عنده. لمس شاغاتايف هذا الإنسان من وجهه ويده وبدنه وكان بوسعه حتى أن يقتله، لكن ذاك ظل كالسابق يتلفظ الكلمات ولا ينفعل أو يضطرب، وكأنه غريب على نفسه وعلى حياته.

وفي الخارج كان الليل ذاته. عندما انصرف شاغاتايف أراد أن

يعود ويأخذ ذلك الرجل المتمتم، ولكن إلى أين يأخذه إذا كان قد تعذب حتى صار بحاجة إلى النسيان وليس إلى المعونة؟ التفت، فرأى الكلب الأخرس يسير خلفه. وفي صرائف القصب الأخرى غط الناس في النوم والأحلام. والريح الخفيفة تبعث الرجفة أحياناً في أعالي القصب وتنداح تلك الرجفة من هنا حتى بحيرة آرال. وفي الصريفة القريبة من مأوى أم نزار وآيديم كان شخص ما يتكلم بصوت خافت. دخل الكلب تلك الصريفة وخرج منها، ثم ركض عائداً إلى ملجئه خشية أن يضيع أو ينسى صاحبه ومنزله.

عاد نزار إلى أمه ورقد جنب آيديم دون أن يخلع ثيابه. كانت الصبية تتنفس في النوم ببطء وعلى نحو غير ملحوظ تقريباً، حتى خاف أن تنسى التقاط النفس فتموت. رقد شاغاتايف على الأرض مباشرة وسمع من خلال النوم تمتمة شعبه الناعسة تنساب في قاع التربة الصامت، وفرقعة الأعشاب الحمضية والقلوية التي تهضمها المعد والأمعاء بعسر شديد. وفي كوخ مجاور من البردي كان زوج يتحدث مع زوجته. وهو يريد طفلاً، وربما سيفلح الآن في التلقيح. لكن الزوجة تجيبه:

- كلا، نقطة ضعف فينا نحن الاثنين. من عشر سنين نحاول دون جدوى، أنا خاوية كالميتة...

صمت الزوج، ثم قال:

- على أية حال، فلنفعل شيئاً ما معاً، ليس عندنا ما يفرح القلب.

- طيب. - أجابته الزوجة - ليس عندي ما ألبسه. وأنت أيضاً، فكيف سنقضي الشتاء؟!

- عندما ننام نتدفأ - أجابها الزوج - فما الذي يمكن أن نفعله في فقرنا؟ لم يبق غيرك، وأنا أنظر إليك عفوياً وأحبك!

- لم يبق شيء - وافقته المرأة - ليست عندنا أية حاجيات، وقد فكرت وأطلت التفكير وفهمت بأني أحبك.

- وأنا أيضاً أحبك - قال الزوج - وإلا فلا يمكن العيش. . .

- لا أرخص من الزوجة. - أجابته المرأة - أي ملك لديك، ونحن في هذا الفقر، سوى جسدي؟

- نعم، لا ملك لدي. - وافقها الزوج - الحمد للّه أن الزوجة تولد وتكبر بنفسها ولا أحد يصنعها خصيصاً. عندك نهدان وبطن وشفتان، وعيناك تريان. وهذا كثير. أنا أفكر فيك وأنت تفكرين فيّ، والوقت ينقضي. . .

ولاذا بالصمت. نظف شاغاتايف أذنيه مما تجمّع فيهما وأخذ ينصت متوقعاً أن تبلغه كلمات أخرى من مضجع الزوجين.

وقالت الزوجة:

- نحن وإياك من الحاجيات الرديئة. فأنت نحيل ضعيف، وأنا جفَّ نهداي، وتؤلمني عظامي من الداخل. . .

- سأحب بقاياك. - أجابها الزوج.

ولاذا بالصمت نهائياً. ربما تعانقا ليمسكا بأيديهما سعادتهما الوحيدة.

تمتم نزار شاغاتايف وابتسم، ثم غفا راضياً لأن السعادة موجودة على الأقل لدى اثنين من أبناء وطنه وإنْ كانت شحيحة.

9

في الصباح لم تلتفت جولشتاي إلى ابنها ولا إلى الصبية التي أحضرها معه. فقد استنفدت قوى فؤادها الذكريات التي انهالت عليها حينما رأته وهو نائم على العشب قرب الدرب ومعه آيديم. أما الآن فهي تعيش حياتها لا غير. ليس في الصريفة ما يمكن أن تنشغل به، ومع ذلك انهمكت أمداً طويلاً في تعديل عيدان القصب على الجدران المائلة، وجمعت القش من الأرضية قشة قشة، ونظفت القِدر من الداخل، ونفضت الحصيرة وطوتها. فعلت ذلك كله بمنتهى الحرص والعناية كي تحافظ على ما في صريفتها من حاجيات، لأن تلك الحاجيات صلتها الوحيدة بالحياة وبالآخرين. وعدا ذلك لا بدّ للإنسان أن يفكر بشيء ما طول الوقت. وهي أيضاً تصورت شيئاً، على ما يبدو، عندما كانت منهمكة بمشاغلها الضئيلة التي لا نفع منها تقريباً. وهي لا تجيد التفكير دون عمل. فالحاجيات والصريفة، عندما رتبتها، منحتها بعض الذكريات وملأت قلبها الضعيف الخاوي بإحساس الحياة.

طلبت من ابنها أن يعطيها شيئاً. طلبت بوجل، بدون أمل ولا جشع، لمجرد أن تكثر حاجياتها ويزداد انشغالها اليومي بها،

فالعمر عندئذٍ يمضي بصورة أفضل. وفهم نزار أمه بالشكل الصحيح، فأعطاها معطفه وقراب المسدس بعد أن دسّ المسدس نفسه في جيب بنطاله، كما أعطاها دفتراً وأربعين روبلاً، وطلب منها بالمناسبة أن تطعم آيديم. إلا أن الصبية سبقتهما ومضت بنفسها لتجمع الأعشاب طعاماً، وظلت جولشتاي في الصريفة. وسألها نزار:

- هل تعرفين الملا شيركيزوف؟

- أنا أعرف الجميع - قالت الأم.

- اذهبي إليه وعيشي عنده، هذا أفضل لك. فهو ضرير وسيحرص عليك إلى أن يموت.

أطرقت العجوز المحدودبة الظهر، فهي لا تدري ما حاجة الملا إليها إذا كان قلبها من زمان ينبض بحكم العادة وليس بدافع من العواطف وإذا كانت الحياة بالنسبة لها تكاد تمحى. لكنها ذهبت دون أن تأخذ معها شيئاً من مأواها، ما عدا الحاجيات التي تسلّمتها من ابنها، وحتى هذه الحاجيات أخذتها لمجرد أنها كانت بين يديها. واتضح أنها لا تحب حاجياتها المنزلية أيضاً، لأن قواها الروحية البشرية لم تكن كافية للجشع.

وظل شاغاتايف يعيش مع آيديم لوحدهما، فهو يريد لقلب أمه أن يتدفأ في حياة عائلية مع الملا شيركيزوف. وبدأت آيديم في الحال تدبّر شؤون المنزل وتجمع الأعشاب وتطبخها وتصيد السمك وتعد منه طعام الغداء. ذات مرة مضت بعيداً عبر الروافد والأهوار حتى بلغت حرش الغضى وأحضرت حطباً لفصل

الشتاء. ثم مضى نزار بنفسه إلى ذلك الحرش البعيد وجلب الحطب ومنع الصبية من الذهاب إلى هناك منعاً باتاً وسمح لها فقط بإشعال نار خفيفة في الوجاق وإعداد الحساء مرة واحدة في اليوم. ولكن سرعان ما تعيَّن عليه أن يقوم بكل الشؤون المنزلية لوحده. فقد مرضت آيديم واشتدت عليها الحمى وتصبب العرق منها. غطاها نزار بالعشب ليقيها من القشعريرة ومسح عينيها المحتقنتين وسقاها حساءً عشبياً مخففاً، لكن الصبية لم تكن تقاوم المرض. اشتد هزالها واستسلمت للصمت وتيمّمت صوب الموت. عيناها تنظران إلى نزار بلا وعي، وما كانت تستطيع التفكير بشيء يخفف حالتها. جلس نزار قربها أياماً طويلة خالية، يحنو عليها ويحميها من الأسى والرعب.

وفي باقي الأكواخ والصرائف رقد مرضى آخرون هزالى خائرون. أحصى شاغاتايف أبناء قومه فوجدهم سبعة وأربعين شخصاً، والمرضى منهم عشرون. كانت بين أبناء الجان إحدى عشرة امرأة وثلاثة أطفال لا يتجاوزون الثانية عشرة من العمر، ومنهم آيديم، وكان الموت يختطف النساء قبل غيرهن، فهن يكدحن أكثر من الجميع. واللواتي يبقين على قيد الحياة نادراً ما يلدن. كن راغبات في الأطفال، رغم توتر البقية الباقية من قواهن الخائرة، أكثر من رغبة الأمهات في البلدان الغنية البعيدة. وعندما يولد الأطفال أحياناً يتلقون تركة والديهم من بصيلات القصب والعيش المرير في العراء.

أثناء مرض آيديم جاء إلى نزار ممثل اللجنة التنفيذية في الناحية نورمحمد. أخبره نزار بأنه موفد إلى هنا لمساعدة شعبه

الذي يجب أن يتمتع بالسعادة ويتقدم إلى الأمام ويتكاثر. وأجاب نورمحمد أن قلب الشعب قد تكلس في الفاقة وذهنه تبلد، ولم يبق لديه ما يتذوق به سعادته. الأفضل لنزار أن يترك هذا الشعب وشأنه وينساه إلى الأبد أو يقوده إلى البادية أو السهوب أو الجبال ليهيم ويضيع هناك، فيعتبر شعباً منقرضاً لا وجود له.

أخذ نزار يتطلع إلى نورمحمد شيئاً فشيئاً. فوجده شيخاً طويل القامة في سن متقدمة. عيناه تبصان من جفون متلاصقة وكأنهما تشقان ستار ألم دائم. يرتدي زبوناً أوزبكياً وطاقية مربعة، وينتعل شبشباً من اللباد. إنه الشخص الوحيد الذي حافظ على هذا اللباس بين الجان. والسبب في ذلك أن نورمحمد لم يكن من أبنائهم. فقد أوفد إليهم قبل ستة أشهر وظل ينظر إلى القوم بعينين غريبتين.

– ماذا فعلت هنا في نصف عام؟ – سأله نزار.

– لا شيء. – أجابه نورمحمد. – فأنا لا أحيي الموتى.

– وماذا تنتظر إذن؟ ما نفع بقائك هنا؟

– عندما جئت كان عددهم مئة وعشرة أشخاص. وهم الآن أقل. أنا أحفر القبور للموتى، فلا يجوز تركهم في المستنقعات، لأن ذلك ينشر العدوى. ولذا أنقلهم إلى الرمال البعيدة. سأظل أدفنهم حتى يموت آخرهم، وعندذاك سأذهب وأقول إنني أديت واجبي...

– الناس أنفسهم سيدفنون أقرباءهم، ولا حاجة بهم إليك.

– كلا، لن يدفنوهم، أنا أعرف ذلك.

- لماذا؟

- الموتى يُدفنون من قبل الأحياء، ولا أحياء هنا. كل الموجودين يحتضرون، ينتظرون ساعتهم في المنام. ولن تتمكن من منحهم السعادة، فهم لا يعرفون الآن حتى مصيبتهم، ولم يعودوا يشعرون بالعذاب، لقد تلوعوا حتى تعودوا عليه.

- فما الذي يجب أن نفعله نحن الاثنين؟ - سأله نزار.

- لا شيء. - أجاب نورمحمد - لا يمكن تعذيب الإنسان لأمد طويل، بينما كان أمراء حيوى يعتقدون أن ذلك بالإمكان. فهو يهلك من العذاب الطويل. ولذا ينبغي تعذيبه قليلاً قليلاً ومنحه إمكانية اللعب، حتى يمكن تعذيبه من جديد...

- لن أحفر لهم قبوراً - قال نزار - أنا لا أعرف من أنت. إنك غريب علينا، والأفضل أن ترحل من هنا وتتركنا لحالنا.

لمس نورمحمد جبين آيديم النائمة ثم نهض:

- رأيي في دماغي ورأيك في دماغك. سأدفن هذه الصبية قريباً. إلى اللقاء.

مضى إلى كوخه. فيما لفَّ نزار بدن آيديم بالعشب وبالحصيرة ونقلها على عجل إلى أمه والملا شيركيزوف كي يسقياها بين حين وآخر ويغطياها من برد الليل. ثم توجّه في الحال إلى شيمهاي التي تبعد مسافة مئة أو مئة وخمسين كيلومتراً. سار في مجاري الأنهار الناشفة، عبر الروافد والقصب ومجاهل النباتات المختلطة. سار بقية يومه والليل ويوماً آخر. فتدمت قدماه وتهرأت ثيابه في الطريق وهو يضل سبيله مثقلاً باللجاجة ونفاد

الصبر حتى اختلطت عليه الأمور، فانكب على وجهه في نعومة الطحالب بمكان ما. ثم استيقظ ورأى أنقاضاً كبيرة على مسافة منه، فاقترب من الحيطان الطينية القديمة المهدمة. الشمس المرتفعة كدست السخونة تحتها، وانبعث النعاس والنسيان وجنون الهواء الخانق من أساس تلك الحيطان الشائخة. دخل شاغاتايف الحصن من الثغرة التي فتحتها مياه الفيضانات في الجدار الطيني المهدم. الجو هناك قائظ لدرجة لا تطاق بسبب السكون المخيم على المكان. فقد تجمَّع حر السماء في عش واحد تحيطه حشائش كثيفة هائلة ذات سيقان دهنية سميكة لا أحد هنا يقتات عليها، فراحت تنمو وتكبر متمتعة بلذة الحياة. ألقى شاغاتايف نظرة حاقدة على هذه النباتات الدسمة وهو يبحث تحتها عن أعشاب رقيقة تصلح للأكل. عثر على عظام صغيرة مهشمة، كسرها الناس ليكون الحساء مركّزاً، أو قطعوها بالسيف مراراً إنْ كانت عظام إنسان. وعلى مسافة أبعد رأى عدة عظام أخرى ونصف هيكل عظمي بشري مع الجمجمة. لقد مات هذا الإنسان ووجهه إلى الأرض، وتباعدت أضلاعه إلى الجانبين وكأنها تتنفس بعد الموت، وانغرز طرف أحد الأضلاع في خوذة مدعوكة من خوذ جنود الجيش الأحمر علاها الصدأ ونمت حواليها أعشاب شاحبة. خلّص نزار الخوذة من الضلع المغروز فيها وكان لا يزال عليها أثر النجمة الخماسية وعلى قماش حشيّتها من جهة الجبهة كتابة بالقلم الكوبيا: «أوراز غولومانوف». هذا هو بالطبع اسم الجندي الشهيد. نظف شاغاتايف الخوذة وارتداها ووضع طاقيته على جمجمة القتيل. وعلى الجدار من داخل الحصن حفر

شعار: «النصر للثورة!» ربما بسيف غولومانوف أو بسيف جندي آخر نثرت عظامه على الأرض في مكان ما. وكان السيف قد حفر الشعار على الجدار بعمق كبير كيلا تمحوه الأيام والرياح والأمطار ولا تغسل بقايا أمل الأموات والأحياء. ولعل فصيلاً من أفراد الجيش الأحمر رابط هنا في عام 1930 أو 1931 وقاتل ضد عصابات أعداء الثورة وضد قوات مالكي العبيد في حيوى وتركمانيا.

ولعل غولومانوف ظل مع رفاقه هنا، ورفاته يتفتت بهدوء وكأنه كان واثقاً من أن بقية حياته سيعيشها الآخرون بهناء ونعيم مثلما لو عاشها هو. غطى نزار رفات غولومانوف بالعشب والتراب كيلا تبعثر عظامه النسور أو الوحوش، ومضى في سبيله إلى شيمهاي.

اشترى هناك صندوقاً للأدوية مما يخصص للتعاونيات وحصل، بمساعدة اللجنة الحزبية في الناحية، على بضع عشرات من جرعات مسحوق الكنين، لكنه يعرف أن الأدوية لن تساعد شعبه الذي يحتاج أكثر ما يحتاج إلى حياة أخرى غير موجودة بعد، حياة يمكن للمرء أن يتحملها دون أن يموت. وعرّج على مكتب البريد على أمل أن يجد رسالة من موسكو، ولا ضير في السؤال هل هناك رسالة أم لا. في داخل مكتب البريد عُلّقت لافتات عليها رسوم الخطوط الجوية البعيدة، وتحت الزجاج على الطاولات المنحدرة نماذج لكتابة العناوين البريدية الصحيحة إلى موسكو ولينينغراد وتفليس، وكأن الأهالي المحليين يبعثون رسائلهم إلى هذه العناوين فقط ويحنّون إلى هذه المدن الرائعة وحدها.

راجع نزار شباك «حسب الطلب» فسلّموه رسالة عادية من موسكو حوّلها إلى هنا من طشقند العاملون الحريصون في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوزبكستان. وكانت الرسالة من كسينيا: «نزار إيفانوفيتش شاغاتايف! زوجتك، ماما فيرا، توفيت في المستشفى السريري الثاني بمدينة موسكو أثناء الولادة. الطفلة ولدت ميتة وقد رأيتها. في المستشفى وضعوا الطفلة في تابوت واحد مع ماما فيرا زوجتك، ودفنوهما في مقبرة فاغانكوفسكويه على مسافة غير بعيدة من قبر الكاتب باتوشكوف. ذهبت إلى القبر مرتين. وقفت هناك بعض الوقت وانصرفت. عندما تعود سأريك مكان القبر. مع تحيات المخلصة كسينيا».

أطلّت فتاة تركمانية من شباك «حسب الطلب» وقالت:

- تمهل، وصلتك برقية أيضاً، قبل ستة أيام.

وسلّمته برقية من طشقند: «نعتذر. فتحنا رسالة وفاة زوجتك لصعوبة الاتصال بك. نسمح لك بالسفر لمدة شهر إلى موسكو على أن تعود بعد ذلك. مع تحيات اسفينديياروف. شعبة التنظيم. تعاد إلى المرسل في طشقند إذا لم تسلّم في عشرين يوماً».

خبأ شاغاتايف الرسالة والبرقية وأخذ صندوق الأدوية وغادر مكتب البريد. شيمهاي مدينة صغيرة جداً. الأحواش الصماء ومنازل الطين لا تكاد ترى وسط فضاء خال في عالم خواء. اشترى نزار أرغفة خبز الشعير من المقهى وبعد خمس دقائق كان خارج المدينة، سائراً إلى سبيله، في مهب الريح. الشمس مرتفعة تغمر الدرب بنور وفير، ومع ذلك ما كان بوسع هذا النور أن يدفئ

فؤاد الإنسان حتى يملأه بالسعادة. كفَّ نزار عن التفكير وراح يحدق في ما يراه من معالم على الطريق: في سيقان الأعشاب الميتة التي سقطت من عربة ما، في روث الحمير، في خف روسي بال تركه جوال مجهول جاء إلى هنا من بعيد. كانت بقايا وآثار حياة الغير تصرف شاغاتايف عن أفكاره وهمومه. وأخيراً رأى سلحفاة صغيرة برقبة منتفخة ممدودة وأطراف مطروحة خائرة لم تعد تحمي نفسها داخل درعها: لقد ماتت على حافة الطريق. رفعها شاغاتايف وتفحصها. ثم تنحى بها جانباً ودفنها في الرمل. غدت هذه السلحفاة أقرب إلى المرحومة فيرا منه شخصياً، فوقف متحيراً. جلس على الأرض بذهن متخدر لا يفهم أنه يعيش ويعمل من أجل هدف معيّن. ظواهر الطبيعة العادية مضجرة غريبة عليه. لم يعد بحاجة إلى أية لذة أو تسلية، فرمى باشمئزاز أرغفة الخبز وقد تسخنت في يده. ثم صرخ كما في الطفولة عندما أبعدته أمه عن وادي القصب، وراح يبحث بنظراته، في هذا المكان المجهول، عمّن يسمعه ويأتي إليه، وكأن لكل إنسان معاوناً يجري وراءه بلا كلل ولا ينتظر إلا ساعة اليأس والقنوط لكي يمثل أمامه... كان شيء ما يدوي باستمرار عن بعد، في السكون، وكأنما هو آت من وراء ستار ميت، في عالم قريب، لكنه عالم آخر. ولم يكن لتلك الأصوات معنى أو تحديد. أنصت نزار. تذكّر أنه سمع هذه الأصوات في السابق أيضاً، لكنه لم يكن يفهمها إطلاقاً ولا يعيرها اهتماماً. وتكررت الأصوات. تأتي متقطعة بفترات صمت موات، تذلل مجالات الفراغ الخاوية أشبه بسائل يتساقط في قطرات متجمدة هائلة، أو صور يبعث نداءات

قصيرة غير متلاحقة ويبتعد أكثر فأكثر في الغابات الزرقاء. ويخيّل للمرء أن زماناً كونياً عميقاً يمضي بلا رجعة ويحسب أشلاءه الميتة. ولعل هذه الأصوات تنبعث من مكان أقرب بكثير، من داخل بدن نزار نفسه، من نبض قلبه البطيء، فتذكّره بالحياة العامة التي نسيها الآن وخنقها الألم في الصدر المنقبض. . .

نهض نزار شاغاتايف وأسرع نحو ديار قومه. وفي المساء ألمَّ به التعب، فغفا دون أن يختبئ في شق من شقوق الأرض الدافئة. وسمع طوال الليل دوياً مبهماً ولغطاً واضطراباً وتحركاً مقلقاً للطبيعة الواثقة من أفعالها ورسالتها.

وفي الليلة التالية بلغ أطراف مجاهل القصب. كان قريباً من أهله وذويه. وفكر بأن شعب الجان نائم الآن، فلينس في النوم على الأقل لوعة الجوع والعذاب، ولتستمر الليلة طويلاً إذا كان عليه في الصباح أن يأخذ ولو فكرة واهية عن الواقع، فكرة لا تتجاوز أحلام النوم، كيلا يموت. ولذا يخف قلق شاغاتايف في الليل عادة، فهو يفهم أن الحياة أسهل على النائمين، وأن أمه لا تتذكره الآن ولا تتذكر نفسها، وأن آيديم الصغيرة راقدة تتدفأ بذاتها كالسعيدة التي لا تحتاج إلى أحد.

سار الهوينى وكأنه يتمشى ليرتاح. واجتاز أجمة واطئة من شجر الغضى وعبر رافداً ضحلاً. والقمر الشاحب المتأخر ينير الماء الجاري الذي يكدح على الدوام دون تشجيع من أحد. وخيّم غبار يومض في ضوء القمر على طريق القوافل القديم الممتد بجوار حيوى إلى بلاد الأفغان وأبعد. وتعذر على نزار فهم مصدر الغبار. فهذا الطريق مهجور منذ مئات السنين، وهو

يمتد على رمال مضغوطة صلبة، وفي موضع واحد فقط يمر بطبقة ترابية صفراء لعلها جافة الآن ويتطاير منها غبار كثيف في إثر عابري السبيل. فالإبل والحمير لا تثير مثل هذا الغبار، ذلك لأن غبارها يرتفع إلى أعلى ويتكاثف في آخر القافلة. انحرف نزار عن طريقه واتجه جنوباً عبر الأماكن الوعرة ليرى من الذي يسير هناك حيث لا يحتمل أن يسير أحد. خاض طويلاً في أجمة القصب، وهو يغوص في الوحل ويزيح بيديه الشجيرات الشوكية الفواحة، حتى وصل إلى كثيب ناشف نظيف تتلاعب به الريح، وربما ترقد في مدفن تحته مدينة أثرية منسية.

الطريق القديم يلتف حول الكثيب من سفحه، ثم يختفي في عتمة الجنوب الشرقي، صوب الصين وأفغانستان. لم يصل عابرو السبيل المجهولون إلى هنا بعد. فهم يسيرون ببطء وهدوء، ولا يسمع لهم صوت. ولعلهم انحرفوا عن الطريق أو عادوا أدراجهم، أو ربما ناموا على الأرض. وتوجّه شاغاتايف للقائهم. لم يكن يتوقع أن يرى ما يبعث على السرور أو يثير الدهشة. فهو يعرف أن الغبار في ضوء القمر يمكن أن تثيره الوحوش التي تفر من المجاعة في أعماق دلتا أموداريا وتتوجه إلى الواحات البعيدة، إلى المزارع التعاونية، لتشبع هناك من لحم الضأن.

لكن الذين يسيرون صوب نزار بشر. انبطح على حافة الطريق ورآهم جميعاً. كان ممثل لجنة الناحية نورمحمد يقود الملا شيركيزوف الضرير من يده وخلفهما تسير أم نزار وقربها آيديم تنقّل قدميها الصغيرتين. وخلفهم سائر الأشباح. بينهم الشيخ

سفيان ونضير شاكر المتمتم وزوجته التي يحبها لأنها الهبة الوحيدة في حياته، ثم يأتي دوردي وزوجته. ولا يزيد عددهم عن أربعة عشر شخصاً، وربما ثمانية عشر. أما الباقون من أبناء الجان فلم يستطيعوا أن يستيقظوا، على ما يبدو، أو خارت قواهم ولم يعودوا راغبين في المسير.

جولشتاي تحمل بصيلات القصب ملفوفة في معطف ابنها لأجل الطعام. وآيديم تجرّ على الأرض طرف ساق من داخل حزمة أعشاب تصلح للأكل. وعلى رأس نضير شاكر صرة كبيرة من البطانيات. والملا شيركيزوف يمسك بيده اليسرى نورمحمد ويبحث بيده اليمنى عن شيء ما في الهواء. عيون الجميع مغمضة، فهم يسيرون شبه نائمين، وبعضهم يهمس أو يتمتم مع نفسه، لقد تعوّدوا على العيش في الخيال. نورمحمد هو الشخص الوحيد الذي ينظر بعينين مفتحتين إلى الأمام متفهماً العالم كله بوضوح. كان صامتاً يدخن عشبة ملفوفة في عود يابس من قصب الأهوار.

مضى نزار إلى نورمحمد وسأله: إلى أين تقود هؤلاء الناس؟

سلّم نورمحمد على نزار وأجاب:

– أي ناس؟ لقد تبخرت أرواحهم من زمان، ولا فرق عندهم إن كانوا يعيشون أم لا.

وواصل سيره. وسار نزار جنبه. وابتسم نورمجمد مع نفسه وتطلّع إلى جانب، فالطبيعة حتى في الظلام بدت له بائسة بغيضة، وخلفه يسير أناس لا وجود لهم تقريباً.

الطريق يطوق الكثيب غير المرتفع الذي كان عليه نزار قبل قليل. وراودته خاطرة جديدة وهو ينظر إلى هذه الكتلة الترابية التي يرقد تحتها أيضاً شعب صغير آخر اختلطت عظامه وفقد اسمه وبدنه كيلا يثير انتباه المستبدين. العمل العبودي والإرهاق والاستغلال لا تستولي على القوة البدنية وحدها أو اليدين وحدهما، كلا، إنها تنخر العقل والقلب أيضاً، والروح هي أول ما يتفتت، ثم يتفسخ الجسد، وعندذاك يختبئ الإنسان في الموت ويلتجئ إلى باطن الأرض كما يلتجئ إلى قلعة أو مخبأ دون أن يفهم أنه عاش بعزوق خاوية منصرفاً عن هموم حياته ناسياً إياها، وبدماغ تعوَّد على الإيمان فقط وعلى رؤية الأحلام وتصور الخيال البعيد عن الواقع. فهل يعقل أن شعب الجان سيرقد قريباً في مكان ما وستهيل الريح عليه التراب وتنساه الذاكرة لأن الوقت لم يكفه كي يبني شيئاً من الحجر أو الحديد ويبتدع الجمال الخالد، بل اكتفى بحفر الترع، لكن التيار كان يطميها كل مرة، فيحفر الشعب الطمي ثانية ويلقي بالطين خارج الماء العكر ليترسب منه فيما بعد طمي جديد يشطب جهده مرة أخرى دون أن يترك أثراً؟

- أين الباقون؟ نائمون؟ - سأل شاغاتايف نورمحمد.

- كلا. تخلفوا، لكنهم يسيرون في أثرنا وسيصلون فيما بعد.

كانت آيديم تسير على مقربة من السائرين في المقدمة، وسقطت غافية وظلت على الطريق. سمع نزار وقع سقوطها، فالتفت ورأى خلفها شخصين نائمين على الأرض. وقال له نورمحمد:

- دعهم. سينهضون فيما بعد ويلحقون بنا.

إلا أن نزار حمل آيديم على يديه وسار بها. كانت نائمة دون أن ترتعش من قشعريرة الحمى، فلربما زايلها المرض. ورغم شحة الطعام العشبي وتدهور الحالة الصحية لم يصب جسدها بالهزال. كان يتشرب بكل نافع حتى من شرائح القصب اليابسة، وكان مكيفاً لحياة طويلة سعيدة.

- إلى أين تقودهم؟ - سأل نزار نورمحمد.

- إلى وادي القصب، موطنهم الذي عاشوا فيه سابقاً. - أجابه الرجل.

- لماذا؟

- كي يتحركوا... أنا أقودهم في الطريق الأطول، حول الأهوار. من يسر تسهل الأمور عليه.

- والمرضى؟ - سأله نزار.

- المرضى يسيرون أيضاً، ولكن على مهل. المشي يشفيهم. تركنا المستنقعات وستنتهي الحمى.

لم يصدق نزار بحسن نوايا نورمحمد. فهو لا يعرف هل يشعر المرضى بالنقاهة إذا كانت عقولهم قد نسيت همومها من زمان وتعودت قلوبهم على الأسى. وللسبب نفسه تحمّلوا المرض والآلام بصمت وبلا إحساس، وكأن ذلك لا يعنيهم. تخلّف شاغاتايف عن نورمحمد ليلقي نظرة على أمه. وكانت آيديم نائمة بهدوء على يديه. فتحت جولشتاي عينيها عندما اقترب منها نزار، لكنها لم تقل له شيئاً. وكان الملا الضرير ممسكاً بيدها، ضعيفاً وادعاً. ألقت الأم نظرة على ابنها الذي تعرفه ولا تتذكره إلا إذا

رأته عن قرب. وظل الابن يتطلع إلى أمه، فأشاحت بنظراتها عنه لأنها شعرت بالخجل من العيش أمامه ضعيفة تعيسة. كانت تتوق إلى حبه بقوتها السابقة المنسية، لكنها الآن لا تستطيع، قلبها لا يقوى إلا على أنفاسه. وقد أعجبتها خوذة الجيش الأحمر على رأس ابنها وفكرت بأن تأخذها منه هدية كي تدفئ بها رأسها في المنام.

فيما بعد صادف الشعب المترحل على طريقه رملاً ناشفاً دافئاً، فرقد عليه وغفا حتى الصباح. لم يكن شاغاتايف راغباً في النوم. وضع آيديم بين أمه والملا الضرير، وظل لوحده لا يعرف كيف يقضي الليل. فكان تارة يكتئب، وتارة يبتسم وهو يتمتم مع نفسه ليعيش الحياة كشيء لا حاجة به إليه.

10

في الصباح وصل الذين سقطوا أمس على الطريق أو تخلفوا لضعفهم، وساروا جميعاً في أثر نورمحمد من جديد. كما أخذت آيديم تسير بنفسها، بل وتضحك مع نزار. لمس جبينها، فلم يكن ساخناً، مع أنها لا تحتاج إلى هبوط درجة الحرارة لأكثر من نصف درجة حتى تعود إليها حيويتها ونشاطها من جديد. وفي منتصف النهار انتحى سفيان العجوز بنزار جانباً عن الطريق الناشف، وقال له: قرب مجرى أموداريا تتواجد أحياناً نعجتان شائختان أو ثلاث تعيش لوحدها وقد نسيت الإنسان، لكنها عندما تراه تتذكر الرعاة القدامى فتهرع إليه. وقد بقيت هذه النعاج على قيد الحياة بالصدفة أو ظلت من القطعان البرية الضخمة التي أراد البايات أن يقتادوها إلى أفغانستان، لكن الوقت لم يتسع لذلك. بقيت النعاج تعيش مع كلاب الرعي عدة سنوات، وأخذت الكلاب تقتات عليها، ثم نفقت أو فرّت هرباً من الكآبة وتركت النعاج لوحدها، فكانت تموت بالتدريج من الشيخوخة أو تفترسها الوحوش أو تضل السبيل في الرمال بلا ماء. إلا أن عدداً قليلاً منها ظل على قيد الحياة، وهي الآن تهيم على وجوهها مرتعشة بعضها قري بعض خوفاً من الوحدة. كانت تقوم بمسيرات

محيطية كبيرة في السهب القاحل دون أن تحيد عن طريقها الدائري، وفي ذلك حكمتها الحياتية، لأن سيقان الأعشاب التي تقضمها أو تدوسها تنبت من جديد بعد أن تقطع النعاج باقي طريقها وتعود إلى الموضع السابق. ويعرف سفيان أربع دوائر نباتية جوالة من هذا النوع كانت النعاج المتبقية من القطعان التي توحشت أو انقرضت تسير عليها إلى أن نفقت. وتقع إحدى تلك الدوائر ليس بعيداً وتكاد تتقاطع مع الطريق الذي يسير عليه الجان الآن متوجهين إلى وادي القصب.

وصل سفيان ونزار إلى منخفض صغير رطب بين الرمال وتوقفا. حفر الشيخ الرمل بيديه فوجده رطباً وقال إن النعاج تنبش الأرض بقوائمها الأمامية ثم تمضغ الرمل الرطب وترتوي. في هذا المكان ينبغي انتظار النعاج، وهو يعرف الوقت الذي يستغرقه الطريق الدائري، فحسبه وأكد أن موعد وصولها إلى هنا قد حان. في العام الفائت سار سفيان على أثر قطيع النعاج حتى بلغ هذا المكان. كان عدد الأغنام في القطيع آنذاك حوالى أربعين رأساً أكل هو منها ست نعاج وسقطت سبع منها في الطريق، وواصلت الباقيات السير.

اقتاد نورمحمد الجان إلى المكان نفسه الذي كان نزار وسفيان ينتظران فيه الأغنام. رقد الجميع وغفوا قرب الدرب الذي كانت النعاج في العام الماضي تمضغ رمله الرطب. ناموا جميعاً مع أن المساء لا يزال بعيداً ولم يمض على حياة الصباح وقت طويل. وراح نزار يتمشى وحيداً بين النيام خائفاً من أن أحداً يمكن أن لا يستيقظ بعد الآن. شعر بالضجر لكآبة الأفكار والذكريات التي

تعشش في ذهنه. اقترب من آيديم فوجدها نائمة وجفونها متلاصقة كالعسل وعلى شفتيها ابتسامة الذهول أو الأحلام. فقد استعادت في أحاسيس وتصورات الأحلام الفرحة التي حرمت منها في الواقع المعاش. وخبأ الملا شيركيزوف رأسه في صدر أم نزار والتصق بها وغفا في الحب والدفء ناسياً عماه. ورقد نورمحمد على جانب وكان يتململ على الأرض ويتمتم.

- بم تفكر؟ - سأله نزار.

- بقي أكثر من أربعين شخصاً. لا يزال العدد كبيراً.

كان يعدّ القوم، كم مات منهم وكم بقي على قيد الحياة.

لمس نزار كتف سفيان. لم يكن الشيخ نائماً. كان مغمض العينين فقط وكأنه يحرص على بصره ولا يريد توزيع روحه على انطباعات عالم النهار المرئي. وقال له نزار أن زوجته توفيت في موسكو، لكن سفيان لم يشاطره مصيبته، فقد لاذ بالصمت برهة، ثم طلب من نزار أن يذهب للقاء النعاج. فهي قد تجد رملاً رطباً في مكان آخر وتتجنب القوم النائمين.

استيقظت جولشتاي. جلست، فيما ظل رأس الملا النائم على ركبتيها. توجّه نزار إلى أمه ليتكلم معها، لكنه لم يقل لها شيئاً. كان يريد مكالمة أمه والشيخ الضرير لسبب واحد هو أن يسمع منهما عبارات المؤاساة حتى يواصل العيش. عدل عن المكالمة متسائلاً: هل هو موجود من أجل أن يصون نفسه في الهدوء الروحي وفي مؤاساة الأقرباء؟.. أسف لأنه لم يكتب بطاقة إلى كسينيا من بريد تلك المدينة التي كان فيها ولم يبلغها

بأن تراجع اللجنة المركزية إذا ساءت أحوالها بدون أمها، في حين أنه هو، أباها، بعيد عنها وربما لن يعود لنجدتها.

مسد نزار شعر جولشتاي المسترسل ووضع الخوذة العسكرية على رأسها لأن الصداع ربما ألمّ بأمه من شدة حرارة الشمس. خلعت الأم الخوذة وخبأتها تحت ثيابها، فهي تؤمن بالممتلكات وتحرص عليها، ولذا وضعت في عبّها المنتفخ، على جسدها مباشرة، مختلف الحاجيات العائدة لها والتي تدفئ صدرها.

على مقربة من أم نزار رقدت امرأة قرغيزية ووجهها على الرمل. كانت تصرخ في المنام بصوت طفولي وتنشج أحياناً نشيج الأطفال، ثم يعود إليها الهدوء وتتهادى أنفاسها برفق. رفع نزار وجهها من الصدغين فرأى امرأة كهلة لا تنفرج شفتاها عندما تنساق لصراخ طفولي ترتعد له الفرائص، حتى لكأن طفلاً ينتحب من داخلها، إنساناً آخر لا جريرة له، وحيداً غريباً عليها أشد الغربة، ولم تستيقظ لصراخه. ولربما كان ذلك نواح روحها الطفولية الفعلية التي لم تتغير ولم تذق بعد طعم الحياة.

وضع شاغاتايف رأس المرأة على الأرض ومضى للقاء النعاج الهائمة. في البداية سار كعادته، وعندما أخذ الليل يداهم النهار ركض إلى الأمام بسرعة كيلا يفوت النعاج في الظلام. وكان يتوقف في أحيان نادرة ليلتقط أنفاسه، ثم يسرع من جديد. وعندما اظلمّ الجو تماماً ركض نزار محنيّ الظهر ليرى الأعشاب المتباعدة ويلمس سيقانها بيديه، فهي تدله على الوجهة التي يمكن أن تسير فيها الأغنام. وإلا سيضل الطريق ويحيد عنه إلى الرمال القاحلة، فيفوت النعاج المتجولة.

ركض طويلاً على درب الأغنام الخالي. وحل منتصف الليل، وربما بعد منتصف الليل. وبسبب التعب الشديد واللوعة الغامضة التي تثقل على فؤاده، وبتأثير الريح الخفيفة الباردة بعض الشيء، غابت ذاكرة نزار وغفا أثناء ركضه وسقط على الأرض ولم يتمكن من النهوض. غط في نوم عميق وحيداً في الصحراء، في السكون المقفر الخالي من كل ما يقوى على الحركة. كانت سيقان الأعشاب الواطئة السوداء تنتصب متباعدة كالأيتام حول الإنسان النائم، وكأنها آسفة لأنه سينهض وينصرف، فيما تظل هي وحيدة هناك كما كانت.

عند الفجر فتح نزار عينيه وصفا ذهنه قليلاً ثم احلولك، فغفا من جديد غارقاً في الدفء والنسيان. رقدت نعجتان عند جنبي نزار ودفأتاه، فيما وقفت الأغنام الباقية حوله تنتظر أن ينهض. عددها أربعون رأساً تقريباً، وقد اشتد بها الحنين من زمان إلى الراعي، وها هي تجده الآن. كان خروف عجوز يقترب بين حين وآخر من نزار النائم ويلعق بحذر رقبته وشعر قفاه، فهو يحب رائحة الإنسان وعرقه المالح، لكنه لم يجربه من زمان. كان يستدير بجذعه إلى كل الجهات بحثاً عن كلب الراعي، ولكن لا كلب هناك. لقد تعب الخروف من قيادة النعاج والمصالحة بينها أثناء الشراب وحراستها في الليل من الوحوش المحتملة. ويتذكر الأزمان الطيبة السالفة، حيث يقوم الراعي وكلابه بكل تلك المهام، ولا يبقى عليه هو إلا أن يركب النعاج وينام بينها متعباً فاقد العقل. أما الآن فقد غدا هزيلاً تعيساً وصار أوفر عقلاً، والنعاج تبغضه لضعفه ولامبالاته إزاءها، وتتذكر هي أيضاً الرعاة

والكلاب مع أن هذه الأخيرة، عندما تعمل على إحلال النظام بينها أثناء الشراب، تقتلع من جلودها أحياناً نتف الصوف الذي ينمو بصعوبة على أشواك الصحراء. كان الخروف العجوز يعيش هضيماً، ويريد أن يغدو كلباً، حتى أنه حاول أن يقتلع صوف النعاج بفمه الأدرد.

استيقظ شاغاتايف واقتاد قطيع الغنم إلى قومه، فبلغهم قبيل المساء. كانوا لا يزالون نياماً، وآيديم وحدها تلعب بالرمل وتحفر فيه أنهاراً وتشق طرقاً. أيقظ نزار أبناء جلدته وأمرهم بجمع الأغصان والأعشاب اليابسة لإشعال نار وطبخ لحم الضأن. انهمك سفيان في نحر النعاج، وكان أول مَن شرب دمها من عروق الحناجر، ثم صبّه في طاسة وقدّمه لمن يريد شربه. وقفت النعاج الأخرى تنتظر دورها وتتطلع باهتمام إلى المجزرة دون أن تهتم بأنفسها وكأنها لا ترى للحياة قيمة. أما الخروف فكان على مسافة أبعد، بين نعاج القطيع السليمة، وقد رفع رأسه ليرى بشكل أفضل ما يفعله سفيان. وعندما ظل على قيد الحياة ثلاثون رأساً فقط، واشتعلت النار في أربعة مواقد، وسجيت نعاج كثيرة جثثاً أو جيفاً مسلوخة بأفخاذ هزيلة وثقوب في الأبدان مليئة بالدم وبنسغ الموت، جأر الخروف وأدار رأسه صوب السهب الخالي. كان يعيش من زمان بين النعاج، زوجاً للذبيحات المسجيات الآن، وكان يخوض في أحشائها ويتحسس نحافة عظامها ودفء أجسادها العفيفة الوادعة.

لم يسمح نزار بنحر أكثر من عشرة رؤوس. أما الباقي فللتكاثر ولطعام المستقبل. في هذه المعادلة ظل الخروف على

قيد الحياة، فانتحى جانباً وربض بعيداً. والتحقت به كل النعاج المتبقيات. كانت هزيلة متمرسة ومحنكة بخبرة الحياة البرية، وقد بدت من بعيد شبيهة بالكلاب.

أخذ القوم يشوون الذبائح على المواقد دون أن يقطّعوا أوصالها، وبعد شيّ الواحدة منها يضعونها جانباً على الرمل. ثم بدأ الأكل. أنشأوا يأكلون اللحم بلا جشع ولا تلذذ. يقتطعون منه قطعاً صغيرة يعالجونها بفكوك ضعيفة لم تتعود على مضغ اللحوم. نورمحمد هو الشخص الوحيد الذي أكل بنهم وبسرعة. اقتطع لنفسه شرائح التهمها حالاً، ثم أخذ يقضم العظام حتى تتعرى صقيلة ويمتص نخاعها من الداخل. وبعد ذلك لحس أصابعه ورقد على جنبه الأيسر ليهضم الطعام. وانزوى المتزوجون ليناموا مع زوجاتهم. ومضى الملا شيركيزوف هو الآخر مع أم نزار بعيداً عن الأنظار. أما العزاب واليتامى فبقوا قرب المواقد المنطفئة. وقد هدّهم التعب وغطوا في نوم عميق وكأن الطعام الذي أكلوه ثأرَ لنفسه منهم وأكل قواهم من الداخل فسقطوا مقهورين.

في الليل تفقّد نزار الموقف وأحصى النعاج الحية مع الخروف وجمع جلود الذبائح ورؤوسها في مكان واحد وطفق يحدق في الظلام: ماذا تفعل كسينيا الآن هناك بعيداً وراء هذا الظلام، في ضوء موسكو الكهربائي؟ وأين ترقد المرحومة فيرا؟ ماذا تبقّى تحت التراب من جسدها المكتنز الخجول؟.. مرّ نزار بالنائمين، وهم يفترشون الرمال بلا أغطية، وكأن الموت حصدهم جميعاً، فلم يبق منهم دفانون يوارون جثثهم التراب. لكن بعض الأزواج والزوجات يتحركون في غمار الحب. والملا

شيركيزوف هو الآخر راقد مع جولشتاي. رأى نزار ذلك وبكى. فهو لا يعرف ماذا عليه أن يفعل هنا الآن ليعلّم هذا الشعب الصغير الاشتراكية. ولم يعد قادراً على تركه يموت وحيداً، لأنه هو نفسه، عندما تركته أمه في الصحراء، وجد المأوى عند أحد الرعاة وعند السلطة السوفيتية، وأطعمه ذلك الشخص الغريب وحماه ليعيش ويترعرع.

كان المرضى والضعفاء نائمين في سخونة الحمى. وغفا اثنان منهم وعظام الغنم في أيديهما، بعد أن مصّاها قبيل المنام ليستقيا القوة. مضى نزار إلى وهدة رملية رطبة وأزاح الرمل عنها وحفر بئراً صغيرة. وعندما تجمّع الماء ذهب إلى المرضى وأيقظهم وأعطى كلاً منهم جرعة من الكنين. وتردد كثيراً على البئر الرملية كي يحمل الماء في كفيه ويسقيهم ليتجرعوا الدواء.

الوقت متأخر. فشعر شاغاتايف بالبرد ورقد جنب أكثر المرضى سخونة ليتدفأ ببدنه وغفا. في الصباح اختفى الخروف مع كل النعاج. وكانت آثار أظلافها تمتد صوب الرمال المكشوفة. لقد عافت الأغنام درب العلف المعتاد.

11

أجرى سفيان حسابات في ذهنه وقال إن هذه الأغنام لا بدّ أن تعود إلى درب العلف المعتاد أو تعثر على الدرب الآخر الممتد أبعد منه عبر صحراء قره قوم باستدارة أكبر. إلا أن كلا هذين الدربين ينتهيان عند بحيرات الأوحال في وادي القصب ليس بعيداً عن موطن الجان. وستصل الأغنام آجلاً أم عاجلاً إلى منخفض الظلال الأبدية في وادي القصب وسترى جبال أوست-أورت القاتمة التي عاش الكثيرون من الموجودين هنا الآن حياتهم كلها فيها. ووافق نورمحمد على رأي سفيان، وقال:

- سنسير في أثرها، نشرب دماءها ونأكل لحومها. وبعد سبعة أو ثمانية أيام نصل إلى وادي القصب. . .

وسأل نورمحمد: هل توفي أحد الليلة؟

أجابوه بأن العجوز القره قلباقية توفيت، ولم يمت أحد غيرها. سجّل نورمحمد ملاحظة دقيقة في مفكرته بخصوصها. نزار لا يتذكر هذه العجوز ولم يكن قد رآها. باتت ليلتها وحيدة، بعيداً عن موقف الآخرين، وتوفيت هناك بهدوء.

سار القوم في طابور طويل في أعقاب الأغنام الهاربة.

المرضى والضعفاء يجرجرون أقدامهم في الخلف وغالباً ما يجلسون ليرتاحوا أو يشربوا الماء من القرب الجلدية. وكان نزار يسير خلف الجميع كيلا يضيع أحد أو يموت دون علمه. ولعل الأغنام فرّت بسرعة، فقد أدرك سفيان ذلك من شكل آثار الأظلاف. كما فهمه نزار أيضاً. كان يرتقي الكثبان الرملية العالية وينظر إلى أبعد الآفاق دون أن يلحظ أدنى أثر لسحابة غبار لا بدّ أن يثيرها القطيع. فالأغنام ابتعدت كثيراً.

أضرَّت الشمس بنزار، فأعطته عجوز تركمانية كانت وصيفة في حيوى خرقة انتزعتها من طرف ثوبها ليحمي بها رأسه. وسار القوم بصبر وتحمُّل. شفيت آيديم بالكامل وتفتحت أساريرها، فهناك الكثير من أسباب انتعاش المشاعر والانطباعات بالنسبة لها، وهي الصبية التي لا تعرف شيئاً. وعندما يلمّ بها التعب يحملها نزار فتغفو على كتفه وتصرخ أحياناً وتدمدم في أحلامها المرعبة. ولكنْ أيُّ أحلام تغذي ذهن هذا الشعب الهائم كله إذا كان قد تحمّل قدره ومصيره؟ ما كان بوسعه أن يعيش على الحقيقة، فلو عاش عليها لمات غماً وكدراً حالما يعرفها. بيد أن الناس يعيشون بحكم الميلاد وليس بسبب العقل والحقيقة. وما دامت قلوبهم تنبض فهي تهضم وتفتت يأسهم وتتفتت بنفسها وتستنفد مادتها الحيوية في الصبر والتحمل والعمل.

لم يلحق القوم بالأغنام حتى الهزيع الأخير من الليل. وفي الصباح سأل نورمحمد من جديد: هل مات أحد في الليل أم ظل الجميع أحياءً؟ مات طفل لإحدى الأمهات. فحذف نورمحمد بارتياح روحاً متوفية من القائمة في مفكرته. ولم يبق لدى الجان

سوى طفلين - آيديم وبنت صغيرة ولدت بالصدفة قبل ثلاث سنوات عندما قدم إلى الوادي شخص مجهول من البادية وأقام زهاء ستة أشهر ثم ارتحل تاركاً نطفته في أحشاء جوزيل أرملة أحد قطاع الطرق من منطقة أورغينش القديمة.

وفي اليوم التالي صادفوا نعجتين رابضتين على الدرب. أضعفهما الجري والمرض، وها هما الآن تحتضران. صوفهما الذي تساقط أغلبه متلاصق بعرق الحمى، وعيونهما على البوزين الأعجفين تتطلع بحقد وحشي، فهما الآن أقرب ما تكونان إلى بنات آوى، ولم يبق في إليتيهما أي سمن. نحروا النعجتين في الحال، كيلا يفسد الموت لحمهما، وأكلوهما دون شيّ على النار، ووزعوا عظامهما على الجميع وأخذوها طعاماً للعشاء. وفي اليومين التاليين لم يكن لديهم أي طعام سوى الأعشاب القليلة المتباعدة. أما الماء فقد صادفوه مرتين في غدران السباخ.

صار شعب الجان يمشي في المساء والصباح فقط، أما في النهار فيلتحف الرمال وينام من شدة الضعف والحر، فيما يؤشر نورمحمد أسماء الموتى كل يوم ويتأكد نزار من موتهم فيستمع إلى وجيب القلوب ويراقب العيون، لأن سفيان وعجوزاً آخر، هو أوراز بابايف أحد عبيد فرغانة، تظاهرا بالموت ذات مرة. إلا أن نزار سمع من خلال عظامهما وجيب القلب البعيد المكتوم، فرفعهما على الأقدام وأمرهما بأن يواصلا الحياة. وسألهما:

- لماذا عزمتما على الموت؟

- الروح تخدرت من هذه الحياة. - أجابه سفيان - جفَّت عظامنا والتوت. انكمشت عروقنا وأرادت أن تتمدد لترطبها

الأمطار وتجففها الرياح وتنهشها الديدان، وإلا فنحن نعيقها عن ذلك. . .

ووقف أوراز بابايف فاقداً رشده ينظر إلى نزار بعينين خاويتين. كان في بادئ الأمر عاجزاً عن النطق. ولعله يعتبر نفسه ميتاً على أية حال. ثم أفاد بصوت مسموع:

- لا نستطيع أن نعيش. حاولنا كل يوم، ولكن دون جدوى.

- لا بأس، سنتعلم معاً - قال لهما نزار.

- طيب، سنصبر قليلاً - وافقه سفيان - ثم نموت دفعة واحدة.

اقترب من سفيان عجوز روسي اسمه الشيخ فانكا وتفحّص حنجرته وقلب جفونه وبص في داخل كلتا عينيه ثم لمس ضلوعه وقال له:

- كيف تريد أن تموت وقد بلغت سن الرشد تواً؟ اصبر، سنعيش ونذلل الصعاب حتى نحصل على العسل في براميل ونغمس فيه قطعاً سميكة من الخبز. . .

وابتعد الشيخ الروسي باسماً. كان حبل وريده يكاد ينقطع كل يوم تقريباً، طوال ستين عاماً، لكنه لم ينقطع ولا مرة، ففقد العجوز إيمانه بقوة الموت وبقوة المصائب مهما اشتدت، وراح يعيش بهدوء ولامبالاة كأنه سعيد خالد. نزار يعرف أن الشيخ فانكا فر إلى هنا من الأشغال الشاقة في سيبيريا قبل حوالى ثلاثين عاماً وتعايش مع شعب غريب وظل يعيش مع الجميع على قدم المساواة دون أن يتذكر طريق العودة إلى روسيا.

في الليل هبّت ريح صحراوية قاتمة، وتحركت الرمال في أثر تلك الريح ومحت آثار حوافر الأغنام. وهنا فهم شاغاتايف مجريات الحياة. في الصباح الباكر ابتعد عن النيام والناعسين عندما أدرك أنهم ضيعوا القطيع نهائياً ولم يعد للسير في أثره معنى، وأن الجمع الخائر بلغ منتصف الصحراء بلا طعام ولا عون. لن تكفيه قواه ليصل إلى وادي القصب ولن يستطيع العودة ثانية إلى أهوار أموداريا.

هبّت ريح الصباح الغربية على وجه شاغاتايف وحوَّمت الرمال عند قدميه وأنّت كالعاصفة الثلجية الروسية وراء نافذة الكوخ. ويتعالى نواح الناي تارة، وعزف الأكورديون أو أنغام صور بعيد تارة أخرى. وفي أغلب الأحيان ينساب نشيج ربابة مكبوتة مستكينة. تلك هي أناشيد الرمال التي تعذبها الريح وتجعل الحبة منها تحتك بالحبة الأخرى. رقد نزار على الأرض ليفكر بعمله الآتي. فما كان الغرض من إيفاده إلى هنا أن يموت بين أبناء شعبه ويدعهم يموتون هم أيضاً. . . لمس وجهه بيده، فوجد لحيته قد طالت، وعشش القمل في شعره، وتكدر بدنه النحيف القذر وتعذب من شدة الإهمال. وفكر شاغاتايف بأنه إنسان تافه ممل. فمن يتذكره الآن غير كسينيا؟ وحتى هي ربما أخذت تنساه، فالشباب الآن متحمسون جداً لمهماتهم السعيدة. وغفا على الرمال المتململة، غفا وحيداً على مسافة بعيدة نسبياً عن سائر النائمين. كل شيء فيه همد لأمد طويل وانزوى عميقاً داخل بدنه وفارق الحياة مؤقتاً كيلا يفارقها إلى الأبد. استيقظ في الظلام والرمال تكاد تغطيه. والريح لا تزال تهب. لقد طوى

النهار كله في النوم، فكان الوقت ليلاً. ومضى إلى الموقف فلم يجد القوم هناك. الجميع استيقظوا من زمان وواصلوا سيرهم هاربين من الموت. ولم يبق راقداً هناك إلا نضير شاكر. كان ميتاً. فمه مفتوح، تتكلم فيه الريح والرمال. وعندما وجد نزار الجثة ظل يتلمسها طويلاً ليتأكد من واقع الوفاة، ثم غطى هذا الآدمي بالرمال كيلا يراه أحد.

سار شاغاتايف طول الليل، وكان ينحني أحياناً فيرى آثار القوم الزاحفين، وعندما تمحو الريح الآثار يسير على الحدس وحده.

وفي الصباح لاحظ نزار دلائل ماء في هذا المكان، وعثر على بئر مطمورة بالرمال. أزاحها بيديه حتى بلغ الأعماق الرطبة وأخذ يعلك الرمل الندي، لكنه صار يبصق أكثر مما يمتص، وعندذاك راح يبتلع الرمل حتى زايلته آلام العطش. وفي الأيام الأربعة التالية حاول أن يسير إلى الأمام في عرض الصحراء، لكنه، بسبب ضعفه، لم يتقدم كثيراً وعاد من جديد إلى الرمال البليلة كيلا يموت من العطش بعد أن هدّه الجوع. وفي اليوم الخامس ظل في مكانه ليستجمع قواه في النوم والنسيان، ثم يلتحق بأبناء جلدته. التهم جرعتي مسحوق الكنين الباقيتين لديه وما وجده في جيوبه من فتات، فتحسنت حاله. كان يعرف أن شعبه غير بعيد، فهو أيضاً لا يقوى على الابتعاد عنه، لكن ما لا يعرفه هو وجهة المسير. تصور نزار مدى الارتياح الذي سيشعر به نورمحمد وهو يسجل في المفكرة موته. وابتسم لفكرته القديمة: لماذا يعول الناس على المصيبة والموت، في حين أن السعادة

حتمية بالقدر نفسه، وهي في الغالب أيسر من اليأس والقنوط؟... التحف شاغاتايف الرمال البليلة تفادياً لحرارة الشمس وحاول أن يغط في النسيان ليرتاح ويقتصد في الحياة، لكنه لم يتمكن، فظل يفكر طول الوقت ويحيا قليلاً ويتطلع إلى السماء حيث تجري الريح الساخنة ضباباً خفيفاً من الجنوب الشرقي في خلاء فارغ يجعل المرء يشك في وجود عالم حقيقي صلب.

وبعد الرقاد زحف شاغاتايف صوب كثيب قريب لاحظ عليه نبتة من أشواك إبراهيم مطمورة بالرمال حتى النصف. بلغ النبتة وانتزع منها عدة أغصان يابسة وأخذ يمضغها، ثم اقتلع النبتة كاملة وأطلق سراحها في الريح. فتدحرجت، وسرعان ما اختفت وراء الكثبان متوجهة إلى مكان بعيد من الأرض. ثم قام نزار بعدة خطوات في تلك الأنحاء وعثر على عيدان يابسة من أعشاب الربيع مدفونة الأطراف في أخاديد الرمال غير العميقة، والتهمها هي أيضاً دون تفريق. انزلق من أعلى الكثيب واستقر في أسفله وغفا. وفي المنام انهالت على وعيه الخائر مختلف الذكريات والانطباعات المنسية العرضية وتصورات وجوه مملة كان قد رآها ذات مرة. كل الحياة التي عاشها عادت فجأة وانهالت عليه. وراح يتابعها بوعيه عاجزاً لا يستطيع نسيانها. كان يظن في السابق أن أغلب الأحداث التافهة وحتى الهامة في حياته طواها النسيان إلى الأبد وحجبتها الوقائع الكبرى التي أعقبتها، أما الآن فقد أدرك أن كل شيء ظل باقياً، محفوظاً في داخله كالأحجار الكريمة، أو كحاجيات متسول جشع يحتفظ بما لا نفع فيه مما

يرميه الآخرون. ها هو الشيخ المعدم باق في الذاكرة، لا يزال يتمتم سائلاً أو متشكياً، ولعله قد مات من زمان في الواقع. وها هي صديقة زوجته فيرا التي رآها عرضاً ذات مرة تنحني عليه ولا تفارقه، وهي تثقل على هذا الإنسان النائم في الصحراء حتى مل منها، وعلى سياج الطين وراءها تتراقص ظلال غصن فضي كان ينمو في وقت ما في أشعة الشمس، ربما في شارجوي أو في مكان آخر. والكثير الكثير من الأشياء الأزلية التافهة الشائكة بشكل شجرة عفنة ودائرة بريد في القرية وجبل مقفر يئنّ في شمس الضحى وأزيز الريح الضائعة وعناق فيرا الرقيق. كل ذلك اقتحم نفس نزار دفعة واحدة وعاش فيها بجمود وإصرار، مع أن تلك كانت في الماضي وقائع عابرة تختفي سريعاً في الحقيقة. أما الآن فهي تعيش في دخيلته بهياج وحدّة ولجاجة أكثر بكثير مما في الواقع. كانت هذه الأشياء تعيش بالفعل خاضعة وادعة لا تكشف عن أهميتها ولا تؤلم ضمير الإنسان ومشاعره. لكنها الآن تكدست محشورة في دماغ الفتى، وإذا كان بإمكانه التخلص منها في الحياة الحقيقية لأن الوقت يمر على أية حال، فالأحداث هنا ليست عابرة أبداً، بل هي مستمرة تفتت وتسحق بفعلها المتكرر عظام جمجمة شاغاتايف. أراد أن يصرخ، لكن قواه خانته. همّ بأن ينتحب، لكنه يخشى أن يضيع رطوبة بدنه ولا يريد أن يمضغ الرمل الندي القاسي. أنصت ليسترق السمع: هل تتهادى من بعيد الأصوات المدوية المتقطعة كقطرات المطر وراء الأفق الميت الأسود، من ذلك الليل البهيم الطليق الذي يبتلع آخر ضوء للشمس دون أن يخلف منه بقية كما تبتلع رمال الصحراء نهراً

يصب فيها. كان يسمع أحياناً أصوات الطبيعة البعيدة تلك دون أن يعرف مصدرها ومغزاها.

نهض نزار لينفض النعاس عنه ويتخلص من كل العالم المتزاحم في دماغه كالعاقول. زايله النعاس، لكن تحاشك الذكريات والأفكار المرعب استمر في اليقظة أيضاً. ولمح شيئاً على الكثيب المجاور، لعله حيوان أو خيمة. وخرَّ ثانية من شدة ضعفه، دون أن يتسنى له أن يعرف ماذا على الكثيب. واقتحم ذهنه حالاً ما كان على الكثيب من حيوان أو خيمة أو سيارة، وراح يثقل عليه بلجاجته مع أنه لم يفهمه وليس له حتى مجرد اسم. ولحقت هذه الظاهرة الجديدة بسابقاتها وأجهزت على صحة نزار، فوقع في غيبوبة ليحمي روحه.

أفاق في ساعة مبكرة من اليوم التالي. اختفت الريح دون أن تخلف بقية، وخيّم سكون خجول في كل مكان. كان سكوناً خاوياً هشاً يمكن للعاصفة أن تقتحمه في أية لحظة. وتراجع ظل الليل منسحباً إلى عنان السماء وأناخ على العالم من هناك، أعلى من ضوء النهار. استعاد نزار صحته وصفا ذهنه وأخذ يفكر بواجباته من جديد. ظلت قواه ضعيفة، لكن هذا الضعف لم يعد يعذبه. خطر على باله أنه يُحتمل أن يموت هنا وأن شعبه أيضاً سيتناثر جثة جثة في الصحراء. لم يكن نزار يأسف على نفسه، فالشعب السوفيتي الكبير حي، وسوف يؤمّن على أية حال السعادة عموماً للتعساء. لكن المؤسف أن شعب الجان الذي هو أكثر شعوب الاتحاد السوفيتي حاجة إلى الحياة والسعادة سيهلك.

- لن يهلك. - تمتم نزار.

همّ بالنهوص، وألقى بكل ثقل قلبه على يديه المرتعشتين المغروزتين في الرمال، لكنه تمدد على ظهره من جديد. وكان خلفه من جهة القفا كائن ما. فقد سمع نزار خطواته السريعة المتهيبة.

أغمض عينيه وأمسك بمقبض المسدس في جيبه. كل ما يخشاه الآن هو أن لا يقوى على رفع سلاحه الثقيل، فلم يبق في يده سوى قوة طفل. ظل لأمد طويل راقداً بلا حراك، متظاهراً بالموت. كان يعرف الكثير من الوحوش والكواسر التي تأكل جثث الموتى في السهب. ولعل الوحوش المفترسة تتعقب شعبه صامتة طوال الوقت على بُعد كبير وتلتهم الجثث المتساقطة. فالأغنام والبشر والوحوش ثلاثة مواكب تتحرك بالتعاقب في الصحراء. لكن الأغنام التي ضيعت درب الأعشاب تسير أحياناً خلف العاقول وأشواك إبراهيم الهائمة التي تطاردها الريح، ولذا فالريح هنا هي القوة الموجهة للجميع: من الأشواك حتى الإنسان. ولعل من الحكمة السير مع الريح للحاق بالأغنام. لكن نورمحمد لا يعرف شيئاً، وسفيان ملّ من الحياة ولم يعد يفكر. أراد نزار أن يقفز رأساً ويطلق النار على الوحش المفترض ويقتله ليأكله، لكنه يخشى أن يخطئ الهدف بسبب ضعفه ويخيف الوحوش، فلن تقترب منه أبداً. ولذا صمّم على ترك الوحش يقترب حتى يكاد يلامس بدنه، وعندذاك يطلق النار عليه مباشرة.

كانت الخطوات الخفيفة الحذرة تتناهى من وراء قفا نزار طول الوقت مقتربة تارة ومبتعدة تارة أخرى. حبس الرجل أنفاسه وظل ينتظر متى يهجم عليه هذا الكائن المتلصص الذي لم يكن واثقاً

بعد من وفاته. وكان يقلقه أن يأخذ الوحش بخناقه رأساً أو يصاب بجرح فيفرّ بعيداً. واقتربت الخطوات من رأس نزار، فأخرج المسدس من جيبه قليلاً وشعر بقوة لا بأس بها استجمعها من كل بقايا حياته. إلا أن الخطوات مرّت قربه وابتعدت. فتح الشاب عينيه، ورأى طيرين كبيرين يسيران ببطء مبتعدين من جهة قدميه صوب الكثيب المقابل. لم ير نزار مثل هذين الطيرين من قبل أبداً. كانا يشبهان في وقت معاً نسور البادية والتم البري الأسود. المنقار كمناقير النسور، لكن الرقبة السميكة الغليظة أطول من رقابها، أما القائمتان المتينتان فتحملان عالياً جذعاً رقيقاً خفيفاً كجذوع التم. جناحا أحد الطيرين مطويان قاتمان بلون رمادي داكن، وجناحا الطير الآخر بريش أحمر وأزرق ورمادي. وربما تلك أنثى. وبطن كلا الطيرين مكسو بزغب ناصع البياض. لمح نزار حتى النقط السوداء الصغيرة على جنب الأنثى. تلك براغيث أنشبت خراطيمها في بطنها من خلال الزغب. وكلا الطيرين يشبهان بعض الشيء فرخين هائلين حذرين لم يتعودا بعد على العيش في بدنيهما.

اشتدت حرارة النهار، فغدا أكثر كآبة، وتصاعدت على الرمال أعاصير حلزونية خفيفة، وكان المساء لا يزال يوشي السماء العالية فوق الدفء والنور. تسلق الطائران الكثيب قبالة نزار والتفت كلاهما إليه بعيون ذكية بعيدة النظر. راقب نزار الطيرين من جفونه المنفرجة بالكاد وشاهد حتى اللون الرمادي النادر في عيونهما التي تتطلع إليه بفطنة وانتباه. حكّت الإنثى منقارها بمخالب رجلها وبصقت بقية قديمة من طعام، ربما هي

مخلفات من لحم نضير شاكر. وحلّق الذكر، بينما ظلت الأنثى على الكثيب. حلّق الرخ الهائل على ارتفاع منخفض مبتعداً إلى جانب، ثم ارتفع بعدة طبطبات من جناحيه إلى أعالي الجو، وبعد ذلك شرع يحط من هناك رأساً. شعر نزار بريح تصفع وجهه قبل أن يبلغه الرخ، ورأى فوق وجهه صدر الطير النظيف الأبيض وعينيه الرماديتين الصافيتين. كانتا تشعان فطنة وتفكيراً، وليس حقداً وشراً، فقد لاحظ الطير أن الآدمي حي يراه. سحب نزار المسدس ورفعه بكلتا يديه وأطلق رصاصة على الطير أثناء هجومه على رأسه. ونبعت بقعة قاتمة وسط الزغب الأبيض على الصدر المنتفخ من سرعة التحليق الهابط. وعلى أثر ذلك انتزعت الريح الخاطفة زغب الصدر ونثرته نتفاً حول نقطة الإصابة السوداء. وللحظة تلكأ جسم النسر في الجو دون حراك.

أغمض الطير عينيه الرماديتين، ثم انفتحت جفونهما تلقائياً، لكنهما لم تعودا تريان شيئاً. كان الطير ميتاً. جثم على بدن نزار بالوضعية نفسها التي هوى فيها، صدره على صدره ورأسه على رأسه. فانغرز منقاره في الشعر الكث وتباعد جناحاه الأسودان الخائران العريضان على الجانبين، وتساقط ريشه المتطاير وزغبه المنتوف على نزار الذي أغمي عليه من ثقل سقوط الرخ، لكنه لم يُصَب بجراح. صُعِق من شدة وقوع الطير، إلا أن سرعة سقوطه الخطرة خفّت بسبب الرصاصة التي اخترقت صدره. . . قفز نزار وجلس فوراً من شدة الألم، ذلك لأن أنثى النسر نهشت بمنقارها رجله اليمنى واقتطعت من لحمه قطعة وحلقت في الحال. أطلق عليها نزار النار مرتين من مسدسه الذي أمسكه بكلتا يديه، إلا أنه

أخطأ التنشين، فاختفى الطير الهائل وراء الكثبان، ثم حلّق على ارتفاع شاهق.

لم يعد النسر القتيل يثقل على جسم شاغاتايف. كان مطروحاً على الرمل عند قدميه. ولعل الأنثى سحبته لتتأكد من أنه قضى نحبه فتودعه.

زحف نزار إلى الطير القتيل وأخذ ينتف الريش من رقبته ويأكل حنجرته. وكانت أنثى النسر لا تزال في مجال الرؤية. لكنها بلغت ذروة في السماء يلفعها حتى في وضح النهار ظل الليل وغسق المغيب وشفق الفجر، فخيّل لنزار أنها لن تعود من هناك، من بلد الطيور السماوي السعيد. أكل نزار قليلاً، وشد رجل النسر بطرف حزامه ودس الطرف الآخر داخل بنطاله ليحس حالما يحاول وحش ما سرقة الذبيحة. ثم عالج بلعابه الجرح العميق على قدمه وغطاه بقماش ورقد على عجل ليستعيد قواه.

12

لم تأسف جولشتاي على ابنها. فقد نسيته. سارت محنيّة الظهر خلف الآخرين، وكانت تلمس الرمل عندما يخيّل إليها أن عليه شيئاً ما. وأمسك الملا شيركيزوف بثوبها محاولاً دوماً أن يتذكر أنه على قيد الحياة. فيما استولى القنوط على نورمحمد، فحمل آيديم بيديه. كان يؤمل في تربية هذه الصبية وإطعامها ليتمتع بها كامرأة ثم يبيعها لغيره. وهو يتعذب لقلة النساء بين الجان، وحتى اللواتي ما زلن على قيد الحياة شخن وهرمن، ولا أمل إلا في آيديم، كونها لا تزال صغيرة. للنساء قيمة تجارية أكبر من الرجال، فهن يصلحن للعمل وللسلوى في وقت معاً، لكن الرجال أيضاً يمكن أن يباعوا بثمن جيد إذا لم يقضوا نحبهم جميعاً في الطريق الطويل.

في صباح اليوم الذي افتقدوا فيه نزار شاغاتايف في الموقف ابتسم نورمحمد وسجّل في المفكرة ملاحظة دقيقة عن اختفائه، وهو يجمع، من باب التحوط، معلومات لكتابة تقرير عن مهمته. تصور أن شاغاتايف فرّ بجلده وحيداً ينشد الخلاص شأن أي كائن حي ضعيف النفس. وصار حال نورمحمد أفضل بدونه. فالناس لم يعودوا يسألونه عما إذا كانوا سيصلون قريباً إلى وادي القصب

أم لا، ولا يتذكرون الطعام أبداً. كان نورمحمد يمكن أن يسقط هو الآخر من شدة الضعف، لكنه لا يزال يعتمد على الاحتياطي القديم في بدنه، لأنه أكل الكثير من الرز واللحوم والفواكه عندما عاش في الواحات وكان يتسلل إلى أفغانستان ويتردد على الأمير جُنَيد الذي فرّ إلى هناك من زمان.

في ذلك اليوم سار سفيان مع الريح صوب الجهة التي تتدحرج إليها أشواك إبراهيم ويِنداح العاقول والحشائش الذاوية المنتزعة من تربتها. فهو يعرف أن الأغنام البرية تسير الآن في هذا الاتجاه ما دامت الريح طمست نهائياً درب العلف الذي تنمو فيه أعشاب دائمية على مسافات متباعدة كالواحات. وأراد الباقون أن يتبعوا سفيان، لكن نورمحمد أمرهم بالسير في الجهة المعاكسة، ضد الريح، نحو الجنوب الشرقي. والتصق بآيديم ليتحسس بواكير نهديها، لكنه وقع على أضلاعها الرقيقة.

التفت نورمحمد إلى الجميع. كانوا يتمايلون مترنّحين من شدة الريح. والرمال تعصف بأرجلهم، وترتطم بهم الأعشاب الميتة التي اقتلعتها الرياح من الجذور على امتداد الرحاب الرملية القفراء التي اجتاحتها. سقط البعض وسار آخرون عبر النعاس، فهاموا في جهات متفرقة وضيعوا بعضهم بعضاً في عتمة الرمال الزاحفة.

وتوقف نورمحمد.

الريح تهبّ من الجنوب الشرقي بشدة رتيبة مرهقة وكأنها تنبعث من ماكنة. تفرق الجان بسببها ولم يعودوا يسمعون صوت نورمحمد أو لا يعترفون بهذا الصوت الذي نادى كل واحد منهم

باسمه وطلب منهم أن يسيروا إلى الأمام خلفه. وكان هو نفسه يتنفس بعسر نتيجة للصبر والعطش والجوع، وانسدل على عقله السليم ظل اللامبالاة بمصيره. كان يتصور سابقاً أنه سيقود هذا الشعب التافه الخائر إلى أفغانستان ويبيعه هناك عبيداً إلى الأمراء السابقين، ويعيش باقي حياته في بحبوحة وسعادة بمنزل يعجّ بالخيرات على ضفة نهر في أحد الوديان الأفغانية، وعندذاك لا يطأطئ رأسه للنقابة التعاونية ولا يرغم قلبه المستثار الموتور على السكوت. أما الآن فالرمال والرياح تضرب رجليه وهو يرى شعب الجان يتساقط أو يتفرق فاقداً رشده. لقد غدا بدن كل شخص منهم خاوياً وقلبه يموت بالتدريج. لن يصلوا إلى أفغانستان. وإن وصلوا فلن يتمكنوا من القيام بأبسط الأعمال، لأنه لم يبق لديهم الحد الأدنى من الاهتمام بالعيش الذي يحتاج إليه العبد ليكون عبداً.

ظل نورمحمد واقفاً أمداً طويلاً حتى توزع الجان في عتمة الريح وتهاووا راقدين هناك في الموت أو النوم. قبعت آيديم على رقبته، قرب الحنجرة، وراحت تتنفس في غيبوبة هادئة. حملها بحذر، وظل ينظر إلى القوم الهالكين ويراقبهم بتلذذ وارتياح ناسياً العطش والجوع. وجلس سفيان على الرمل محنيّ الظهر، وكانت جولشتاي المحدودبة راقدة على الأرض من زمان، وقد استعد زوجها الضرير شيركيزوف للرقاد خلفها على الجهة المحمية من الريح وكأنه يبحث عن أسباب الراحة في مخدع الزوجية. وخلع الكهل القره قلباقي النحيف، واسمه تاغان، سرواله ورداءه ورماهما إلى الريح وغاص في الرمل عارياً وظل هناك لا يكاد

يرى من تحت الرمال. وشعر نورمحمد بالارتياح لأن عدد سكان الاتحاد السوفيتي نقص بمقدار شعب كامل. ومع أن أحداً لا يعرف هذا الشعب وحجمه فإن منفعة الدولة تقلصت، والعمال الذين كانوا في زمن ما قد حفروا أنهاراً كاملة من أجل البايات لن يحفروا شيئاً بعد الآن، لن يحفروا حتى القبور لجثثهم.

شعر نورمحمد بالارتياح وبأكثر من الارتياح، وبدأ يتمايل رويداً في رقصةٍ ما ويتصور الأشباح في نومهم الأخير على الرمال. صار يقيّم نفسه بثمن أغلى ومنزلة أعلى. وستتكاثر حصته من منافع الصحراء وثروات الأرض وخيرات الدنيا لأن عدد الأحياء يتناقص. وليس معروفاً هل كان سيحصل، لو باع هذا الشعب كله عبيداً، على لذة أكبر من لذته الآن حين فقده واتسعت الطبيعة فأغلقت دفعة واحدة أفواه أكثر الفقراء نهماً. استقر رأي نورمحمد على الذهاب إلى أفغانستان نهائياً، وعزم أن يأخذ معه آيديم ليبيعها هناك فيعوض ولو جزئياً عن خسائر عمله في الاتحاد السوفيتي.

خفَّت الريح فجأة وغدا الجو أكثر صفاءً. التصق نورمحمد بالصبية ففتحت عينيها. ومضى إلى شِعب رملي مريح ليلاطفها هناك بعد أن اشتد تلهفه إلى التمتع بالجسد الأنثوي. فلا الجوع ولا المصيبة المتواصلة كان بوسعهما أن يبيدا فيه الشبق الذكوري الذي يعيش بين جوانحه بنهم لا يشبع ويشق طريقه بنفسه عبر كل المصائب القاسية ولا يعطي صاحبه من قوته شيئاً ليعوض به عن ضعفه. وكان بإمكانه أن يعانق المرأة ويلقحها، فتحمل منه حتى وهو مريض أو مخبول أو محتضر.

وجد مكاناً منزوياً فوضع الصبية ورقد قربها. وغطت آيديم من جديد في نوم عميق. خلع ثيابها الرثة الوسخة ورأى جسداً طفولياً عارياً لم يتعود عليه، ولم يتمكن في البداية من إشباع شهوته. آيديم صغيرة كطفلة في الخامسة من العمر، وعظامها ملبسة بغشاء أزرق فاتح ليس هناك ما يحشوه ليتحول إلى بشرة حقيقية. إلا أن النهدين الأنثويين نبتا من خلال هذا الغشاء، من الهيكل العظمي تقريباً، وأخذت تنتفخ مواضع الأمومة المرتقبة دون أن تلتفت إلى فقر سائر أعضاء الجسم. ولعل آيديم قد بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر، ولعل بالإمكان الزواج منها لو تناولت طعاماً.

مرق طائران كبيران بأجنحة قاتمة على ارتفاع منخفض فوق نورمحمد وآيديم. شيّعهما الرجل بنظراته، ثم عانق الصبية لأن الوقت ضيّق وليس لديه من القوى ما يكفيه للصبر على الحب والشبق. استيقظت البنت من الألم. كانت قد رأت مراراً كيف ينام الكبار ويحبّون بعضهم بعضاً. وهي تعرف هذه الأمور معرفة دقيقة. وعندما حزرت الآن بما يجري لها أخذت تكرر أفعال الكبار كامرأة محنكة، مما أدهش نورمحمد بعض الشيء. تطلعت إليه بصمت وبعينين فضوليتين مغرورقتين بالدموع من الألم والتحمل. كانت كأنما تنتظر شيئاً سيجري لها الآن، شيئاً مجهولاً أو طيباً، ولكن لم يحدث ما كانت تنتظره، فلم تعد تبدي اهتماماً.

- اذهب. الأفضل أن أبقى لوحدي. - قالت لنورمحمد لأنها لم تتذوق في الحب أي طعم لحياة جديدة.

لكن نورمحمد لم يتركها حتى أشبع غريزته، فبدون ذلك ما كان يستطيع أن يعيش.

خيّم الليل على الصحراء، وانقضى في الظلام. بعض الأشخاص الذين سقطوا بالأمس نهضوا في الصباح وراحوا يتلفتون في الضوء الصافي في سكون نهار جديد. وعلى مقربة من المكان، وراء كثيب أصم، دوت طلقة. استيقظ سفيان وجلس يتنصت. وهرعت إليه آيديم من عند نورمحمد الذي يغط في النوم بعيداً.

كان الشعب كله حياً، لكن الحياة فيه لم تعد تتوقف على إرادته، وهو عاجز تقريباً عن تحمُّلها. كان الجان ينظرون إلى الأمام مع أنهم لا يدركون بوضوح كيف ينبغي لهم أن يستفيدوا من وجودهم. وحتى العيون السوداء غدت فاتحة اللون من اللامبالاة ولم يعد فيها ما يدل على الانتباه أو على وميض البصر، وكأنها عمياء أو مستهلكة عن آخرها. آيديم وحدها تريد أن تظل حية، فلم تبدد طفولتها بعد ولم تستنفد احتياطي الطاقة الذي وهبتها إياه أمها، وكانت تتطلع إلى الرمل بعينين لا تزالان برّاقتين.

دوت إطلاقتان أخريان وراء الكثيب. فمضت آيديم إلى هناك لترى ما حدث، لكنها لم تجد في الحال مكان إطلاق النار. ولم يتوجّه إلى هناك أحد غيرها من الجان، فهم لا يخشون عدواً ولا ينتظرون صديقاً أو مُعيناً.

تجاوزت آيديم الكثيب الرابع، فوقع بصرها على شخص نائم أو ميت في أسفل المنحدر قرب طير قاتم اللون. هبطت الصبية

من المنحدر الرملي فرأت نزار شاغاتايف. لمست وجهه بيديها، فكان دافئاً، وأنفاسه تتصاعد من فمه المفتوح.

- نم. - همست آيديم وأغلقت بأصابعها جفون نزار التي انفرجت في المنام.

ثم فكت الطير القتيل من سير الحزام وسحبته من رجله على الرمال إلى قومها.

تحشد الجميع حول الطير وراحوا يتطلعون إليه بلا نهم، فقد نسوا الأمل في الطعام. وعندذاك أخذت آيديم سكيناً من سروال تاغان المرمي على الأرض وراحت تنتف ريش الطير وتقطعه قطعاً صغيرة وتقدمها لكل من يستطيع الأكل. كانت تمتص دم كل قطعة وعصيرها قبل أن تسلمها. والتهم الجياع تلك القطع ونهشوا العظام عن آخرها وامتصوا الريش المنتوف، لكنهم لم يشبعوا، بل ثارت شهيتهم، وكان الأفضل أن لا يأكلوا شيئاً ولا يبددوا آخر قواهم على المضغ وهضم الطعام.

وذهبت آيديم إلى نزار ثانية. وتبعها الجان ظناً منهم أن هناك المزيد من الطيور القتيلة السمينة. لكنهم ساروا هذه المرة ببطء شديد. وكان البعض يزحفون دافعين أجسادهم بسواعدهم. وأم نزار تزحف هي الأخرى وتساعد الملا شيركيزوف على الزحف. وظل بعض الأشباح في مكانهم لأنهم لم يعودوا قادرين على حمل هياكلهم العظمية. كانت آيديم تسير قليلاً ثم تنتظر طويلاً الأشخاص الذين يجرجرون أقدامهم أو يزحفون خلفها. ولم يصل القوم إلى الكثيب الرملي الذي يرقد وراءه نزار إلا في المساء. وكانت آيديم طول الوقت الذي يتحرك فيه الآدميون

تسمع احتكاك العظام وصريرها داخل أجسادهم، ذلك أن الدهون في مفاصلهم، على ما يبدو، جفَّت نهائياً وصارت العظام تعاني العذاب.

شاهد نورمحمد تحرك القوم من بعيد، لكنه لم يهتم بهم. وهو يريد في البداية أن يبحث حواليه عن مصدر للماء وإن كان مالحاً، وإلا فلن يصل إلى واحة حيوى. وقد عزم على العودة إلى آيديم بعد أن يجد الماء ليسقيها ثم يغادر هذه البقاع معها نهائياً إلى أفغانستان.

13

بكى شاغاتايف من الألم في المنام واستيقظ متصوراً أن ذلك الألم مجرد حلم سيتبدد. ابتعد عنه طائران قاتمان - الأنثى السابقة وذكر جديد. نقرا بدنه ثلاث مرات بمنقارين مصاصين ومزّقا لحمه حتى العظام على الصدر والكتف والركبة. ابتعد الطائران قليلاً وتوقفا ولويا رقبتيهما وتطلعا إليه بعين واحدة لكل منهما. أخرج نزار مسدسه وعجل ليطلق النار على الطائرين قبل أن تنزف جراحه دما غزيراً وقبل أن تتبدد القوى التي استجمعها في النوم. حلق الطائران، وتمكن نزار أن يطلق رصاصتين. فخفض أحد الطائرين جناحيه وحط وعقف رجليه تحته في الحال، ثم وضع رأسه على الرمل ومد رقبته بكاملها وكأن التعب ألمّ به حتى مل منه. وسال الدم من حنجرة الطائر وغمر الريش والرمل القريب. وانسحبت اللامبالاة على عيني النسر وغطتهما بغشاوة رمادية. حلّق الطائر الآخر إلى عنان السماء ونعق من هناك نعيقاً مدوياً قصيراً يشبه دوي كهف خال واختفى في ضباب أشعة الشمس.

ولاحت آيديم من وراء الكثيب. مضت إلى الطائر القتيل وسحبته من رجله لتقربه من نزار.

- آيديم - ناداها نزار.

اقتربت الصبية منه فقال لها:

- أعطيني لأشرب.

قرّبت الصبية الطائر الميت وجثت على ركبتيها ووضعت حنجرته على شفتي نزار، وأخذت تضغط على الرقبة الناقعة ليصبّ الدم في فمه. وقالت:

- ابقَ هادئاً وتظاهر بأنك ميت وستحط عليك الطيور وتأتيك بنات آوى. اقتلها لنقتات عليها...

- أين الآخرون؟ - سألها نزار.

- هناك. - أشارت آيديم صوبهم - إنهم قادمون.

طلب منها نزار أن تحضر له ماءً، إذا كان عندهم ماء، وتغسل جراحه. تفحصت الصبية الجراح واستخرجت ما علق بها من صوف الثياب، ثم لعقتها بلسانها لعلمها بأن اللعاب يداوي الأبدان. وقالت له:

- لا بأس، لن تموت، فالجروح طفيفة، لا تتحرك، وإلا فلن تأتي الطيور إليك.

سحبت آيديم النسر إلى ما وراء الهضبة الرملية، حيث توقف قومها في سكون فج عميق. أكلوا الطير في الحال. إذا كان الناس الذين يتناولون الطعام يومياً لا يشعرون بخفوت الجوع عندما يكون ما يقدّم إليهم زهيداً، فإن القطعة الصغيرة التي قدّمتها آيديم من لحم الطائر لكل واحد من أبناء جلدتها كفيلة بأن تسدّ رمقه. وعلى أية حال فإن بدنه الجائع حصل على الأمل والسلوى.

وخيّم الظلام من جديد. نبش سفيان الرمل بيديه حتى بلغ طبقة ندية وأخذ يمضغ رملها من شدة العطش. رأى البعض ما يفعله سفيان فاقتربوا منه وشاركوه في عشاء الرمل والماء. فيما خشي نورمحمد البرد وجاء إلى القوم ليقضي الليل محشوراً بينهم حتى يتدفأ.

وفي الصباح الباكر أيقظ آيديم وحملها على يديه ومضى صوب أفغانستان نهائياً.

ظل شاغاتايف راقداً ينتظر قدوم الطيور. عدّ الخراطيش المتبقية لديه فوجدها سبعاً. كان يعلم علم اليقين أن الطيور ستأتي من جديد. فقد قتل الذكر بينما طارت الأنثى بجناحيها الملونين وستعود مع غيرها لتجهز على الإنسان الذي قتل زوجها الأول، وربما هي تحبّه أكثر من سائر الخلق.

تملّصت آيديم من يدي نورمحمد وهرعت إلى نزار لتودعه. قبّلها ولاطف وجنتيها بيده النحيفة وابتسم. كانت آثار الظلام لا تزال ملحوظة، ونورمحمد ينتظر الصبية من بعيد. وقال لها نزار:

- لا تذهبي يا آيديم إلى أي مكان. سنحصل قريباً على سعادتنا.

- أعرف ذلك. - قالت الصبية - لكنه يأمرني...

- ادعيه إليّ. - قال لها نزار.

اقتادت آيديم نورمحمد الكبير من يده.

- لا تزال تحتضر؟ - سأل نور محمد - ظننت أن النسور أكلتك من زمان.

- لماذا تأخذ الصبية معك؟ - سأله نزار.

- ما دمتُ آخذها معي فذلك ضروري. - أجاب نورمحمد.

- فلتبق معنا. - قال نزار.

وجلست آيديم قرب نزار على الرمل وقالت:

- سأبقى هنا. أنا صغيرة، وسأتعب من المشي. لا أريد الذهاب.

استند شاغاتايف إلى مرفقه وجذب الصبية إليه. كان الندى قد تساقط، ولاحت قطرات منه على رأس آيديم، فلعقها نزار خلسة. وقال لنورمحمد:

- اذهب لوحدك.

- حان الوقت للموتى كي يصمتوا. - قال نورمحمد - أدر وجهك إلى الأرض ونم! - ورفس وجه نزار بجزمته المشمعة.

سقط نزار على ظهره، ولاحظ أن نورمحمد يحمل في عبّه حتى الآن حقيبة مستخدم متوسط المرتبة. ولعل هذا الرجل يعتبر حياته كلها مجرد إيفاد مؤقت إلى الأماكن النائية، وأن المتعة الوحيدة لوجوده هي ترك المكان الذي كان فيه والذهاب إلى جهة أخرى، وليهلك الباقون في ذلك المكان!

نهض نزار في الحال دون سابق تفكير. كان هذه المرة خالياً خفيفاً، جسمه طليق يتأرجح كأنما لا وزن له. وغرزت آيديم يديها في بطنه لتسنده كيلا يقع. لكن نورمحمد اختطف الصبية من منتصف بدنها ومضى بها. وهرع نزار في أثرهما، إلا أنه هوى على الأرض. ونهض ثانية ليركز قواه. اختلطت الأمور عليه من

شدة الضعف، فصار العالم يلوح له ولا يلوح. سار نورمحمد بلا استعجال في الأمام، فهو لا يخشى من شبح يحتضر.

- إلى أين أنت؟ - صاح نزار بكل ما يستطيع.

وانتحبت آيديم في يدي نورمحمد:

- خلّصني يا نزار شاغاتايف... لا أريد الذهاب إلى أفغانستان، فهناك البرجوازيون...

من أين تعرف الصبية البرجوازيين؟.. لم يسقط نزار ثانية. فقد عادت إليه فكرة الحياة المظفرة. رفع المسدس بيد غدت متصلبة، وأمر نورمحمد بأن يتوقف. وعندما رأى هذا الأخير المسدس أطلق ساقيه للريح حاملاً آيديم. ولمحت الصبية دملاً على رقبته، وأنشبت أظافرها الطويلة فيه. فأطلق صرخة مرعبة وصفع البنت على وجهها، لكن الصفعة جاءت ضعيفة لأنه لا مجال له كي يرفع يده، ولم تتألم آيديم كثيراً ولم ترفع يديها عن الدمل، بل تعلقت على رقبة الرجل، وعندذاك أفلتها لكي يضربها بشدة. وقالت له:

- انظر، ما أشد الألم. قالوا لك لا تسرقني لكنك سرقتني. فأنت من الأعداء. خذ، إذن، تحمّل!

وسال دم ثخين من دمل نورمحمد، فقد سلخت آيديم قشرته اليابسة.

أَنَّ الرجلُ وتخلّص من الصبية بصعوبة. ثم التفت صوب نزار وحمل آيديم من جديد وركض بها. فهو لا يحب العمل مجاناً. لم يستطع نزار أن يرديه قتيلاً خشية أن يصيب البنت، وقد

احتضنها نورمحمد هذه المرة إلى صدره. فأطلق النار على ساقيه. وأصابه. واقتلعه من الأرض كغرس غريب لا نفع فيه. هوى على الرمل وانغرزت كتفه فيه، وكان يحتمل أن يكسر عظام الصبية، إلا أنها انقذفت إلى جانب قبل أن يسقط، ونهضت فوراً وركضت صوب نزار الذي همّ بإطلاق النار ثانية كي يجهز على الرجل، لكنه عدل عن رأيه، فالخراطيش قليلة وينبغي حفظها للصيد الذي يطعم قومه. رقد نورمحمد على الرمل بضع ثوان، ثم انطلق هارباً وقفز إلى سفح الكثيب الشديد الانحدار وكانه رجل سليم قوي. كان يصرخ من الألم راكضاً، والجري يمعن في تمزيق جرحه، لكنه شخصياً لا يسمع صراخه. واختفى وراء الكثيب الرملي وانتهى صوته بالنسبة لنزار إلى الأبد. أما آيديم فكانت واقفة تنظر مصعوقة مندهشة إلى أثر نورمحمد الذي اختفى. وكانت تفكر: هل يموت قريباً أم لا؟

ثم مضت مع شاغاتايف وقالت له:

– اذهب بسرعة وارقد في مكانك حتى تأتيك الطيور، وإلا فليس عندنا ما نأكله.

بلغ نزار مكانه، وهو يزداد ضعفاً، وهوى عليه. فيما مضت آيديم إلى موقف قومها. كان النهار في بدايته، لكن الجان رقدوا جميعاً للاقتصاد في قوى الحياة أثناء النوم أو الهذيان الفارغ ملتحفين بقايا الأسمال.

ظل نزار لوحده وراء الكثيب الرملي. حاول أن لا يفكر إلا بما هو ضروري جداً لإنقاذ حياة الجميع. مرقت أنثى النسر حزينة تعيسة من جديد. نزار قتل ذكرها في المرة الأولى، فمن قتل في

المرة الثانية يا ترى؟ ربما قتل ذكرها الثاني... كلا، تعدد الأزواج ليس من عادات الطيور. يعني أنه قتل رفيقاً لها أو أحد أقارب ذكرها، ربما أخاه وقد دعته لمعاونتها في الانتقام لزوجها. لكنه قتل أيضاً، فمع من ستأتي هذه المرة؟ إذا لم تجد هناك، وراء الأفق أو في السموات البعيدة، أحداً يعينها في القتال فستأتي لوحدها على أية حال. شاغاتايف واثق من ذلك، فهو يعرف مشاعر الجزع الفوارة عند الوحوش والطيور البرية. إنها لا تعرف البكاء لتواسي نفسها بالدموع وهزال القلب ثم تصفح عن العدو. لقد اعتادت أن تهاجم لتخفف آلامها من خلال الكفاح والتوغل داخل بدن العدو الميت أو تهلك شخصياً.

خيّل لنزار وهو يقضي حياته الثانية في البادية أنه يمضي ويبتعد عن الدنيا طول الوقت. وقد أخذ ينسى معالم موسكو، وتحتفظ ذاكرته بملامح وجه كسينيا بالخطوط العامة الخالية من الحياة، ويأسف لذلك ويجهد ذهنه ليراها ويتخيل صورتها أحياناً ويلاحظ دوماً أن شفتيها تهمسان له بشيء، لكنه لا يفهم صوتها ولا يسمعه لبعد المسافة. عيناها الملونتان تنظران إليه باستغراب، وربما بحزن لطول غيابه. إلا أن ذلك مجرد شعور مهدئ. فإن كسينيا في الواقع ربما نسيته كلياً، وهي ما زالت صبية صغيرة تزدحم بصدرها الحياة الرائعة التي تستهويها ولا يبقى فيه مكان لحفظ الانطباعات المتلاشية.

مرَّ النهار فارغاً دون أن يأتي بالخلاص. ونزار يعرف أن من المستحيل إطعام القوم بطير قتيل آخر أو طيرين، لكنه لم يكن من الرجال العظام ولم يتمكن من ابتداع شيء أنجع يقوم به الآن.

ومع أن صيد النسور شيء تافه بسيط، لكنه الشيء الوحيد الذي يستطيع القيام به إلى أن يزايله الضعف والخور. ولو كان على قوّته السابقة لجاب الصحراء كلها على مسافة عشرات الكيلومترات ولعثر على الأغنام البرية واقتادها إلى قومه. ولو كان بوسع أحد منهم أن يسير خمسين أو مئة كيلومتر إلى أقرب تلغراف لطلب النجدة من طشقند. يا ليت طائرة تلوح في الجو. كلا، من المستبعد أن تظهر الطائرات هنا، فلم تكتشف في هذه الأرض بعد كنوز تستحق استخدام الطائرة الباهظة التكاليف. ولذا كان العمل التافه القليل النفع الذي يتلخص في الصبر والتظاهر بالموت يبعث السلوى في نفس نزار، لكنه عزم على الذهاب غداً مع قومه إلى موطنه، إلى وادي القصب، مهما كانت الملابسات.

وغفا نزار. ومرّ شريط العالم أمامه من جديد منتعشاً وضاءً تارة، مبتعداً في غيبوبة معتمة تارة أخرى. ثم يعود من هناك ويتسرب إلى وعي الفتى عبر عظام جمجمته المريضة.

وفي المساء تناهت إليه أصوات مبهمة. واستعد لها ودسّ يده اليمنى تحت ظهره حيث يستقر المسدس. لكنه أخطأ الظن. لم تكن تلك الأصوات حفيف نسور محلقة. كانت تلك أمه. اقتربت منه تحمل رأسها متهدلاً ولمست بدنه بيديها وتطلعت بعينين تجولان في الرمال وفي البقاع القريبة. ما كانت تريد أن تتأكد هل ابنها حي أم ميت. كانت تبحث عن الطيور القتيلة وقد جف ماء العينين من هول المصيبة. كان صرير غريب ينبعث من بدنها. عظامها اليابسة تحتكّ بعضها ببعض بعسر وألم. وابتعدت

جولشتاي ببطء وهي تزيح الرمل بيديها إلى الخلف لتسهل تقدمها إلى الأمام.

وسرعان ما سمع نزار من جديد أصوات الكثير من الهياكل العظمية التي تحتك أجزاؤها بعضها ببعض. أخذ يصارع وعيه الناعس الغائر حتى تمكن من تركيز انتباهه. وكانت هناك حركة وراء الكثيب الرملي. الشيخ فانكا يتطلع إليه من هناك، وقربه سفيان الذي جاء، على ما يبدو، من تحت، من الجانب الثاني للكثيب، ثم لاح وجه آخر لا يُرى بوضوح، وكانت هناك آيديم، وحتى الملا شيركيزوف رغم أنه لا يرى النور. وبالتدريج أخذت الوجوه تزداد، وكلها تنظر صوب نزار، وهو ينظر إليها بالطبع. ولم يعد يسمع احتكاك العظام المحتضرة. عيون كثيرة تراقب الرجل الراقد، عيون بلا هوية، عيون خالية من الجشع والأمل. وما عدا آيديم كانت عيون الجميع تنظر وكأنها عمياء مثل عيني الملا شيركيزوف. لم تبق في قلوبهم قوة تجعل النظرات قادرة على التحرك والتعبير عن أفكار ما. كل ما جاء بهم إلى هنا هو الرغبة في الطعام. ولم تكن تلك الرغبة شرسة مهتاجة كما عند الإنسان العادي الجائع. كانت رغبة عفيفة يمكنها أن تبقى دون إشباع، لأنها لم تعد مدعومة من جانب العقل.

فماذا يريد هؤلاء الأشباح من نزار شاغاتايف؟ وهل يكفيهم طير أو اثنان؟ كلا بالطبع. لكن أحزانهم يمكن أن تتحول إلى فرحة لو تسلّم كل منهم شريحة من لحم الطير المنتوف، ليس من أجل الشبع، بل من أجل الالتقاء بالحياة عموماً وبعضهم ببعض، من أجل تشحيم هياكلهم العظمية الجافة المحتكة، مما يمنحهم

الإحساس بالواقع ويجعلهم يتذكرون وجودهم. فالطعام هنا يغذي الروح ويعيد في الوقت ذاته بريق العيون الوادعة الخالية حتى ترى ضوء الشمس الموزع على الأرض.

وخيّل لنزار أن البشرية كلها، لو مثلت الآن أمامه، ستنظر إليه بنفس تلك النظرة المفعمة بالأمل والمستعدة لتحمّل خيبة الأمل والعودة من جديد لممارسة الحياة المتنوعة التي لا مفر منها.

وابتسم شاغاتايف. فهو يعرف أن المصائب والآلام مجرد وهم وأحلام. ويمكن حتى لآيديم أن تبددها وتذللها بقواها الطفولية. ففي القلب وفي العالم تنبض، كما في القفص، سعادة مقيدة لم يجربها أحد بعد. وكل إنسان يشعر بقوّتها، لكنه يشعر بها كألم لا غير، لأن فعل السعادة مضغوط، مشوّه، مخنوق كقلب في هيكل عظمي. سيغيّر نزار مصير شعبه في القريب العاجل. ولوَّح بيده للجان الذين يتطلعون إليه. وفهمته آيديم وأمرت الجميع أن ينصرفوا كيلا يشوشوا الصيد عليه.

في مستهل الليل، عندما غرقوا جميعاً في بحر النسيان، ذهبت آيديم وحيدة لتبحث عن الأغنام البرية في الصحراء. وطلبت من سفيان والشيخ فانكا أن يحفرا الرمل بأيديهما في واد ضيّق بين الكثبان الممتدة. فقد وجدت هناك طيناً رطباً يتجمع عليه الماء، وشربت قطرات من إحدى الحفر. وهي تدرك أن الماء طعام عندما لا يوجد طعام.

14

الليل يسري في الرمال. ونزار راقد على جنبه الأيمن يسبح في الرؤى والأحلام التي أزاحت العطش والجوع والخور وكل الآلام. كان يرقص مع كسينيا، بعد أن ترعرعت وكبرت، في الحديقة المنارة بالمصابيح الكهربائية، في أمسية صيفية تفوح بشذى التربة والطفولة، قبيل الفجر الذي يوشح قمم الحور كصوت بعيد لم يبلغ المسامع بعد. وتشعر كسينيا بإرهاق لذيذ وعيناها مغمضتان، كما لو كانت نائمة، وهو يحتضنها بحذر. وتهبّ من الشرق، من جهة الفجر، ريح تهز الأشجار وتداعب فساتين الراقصات. وتنساب الموسيقى وينسكب نور الفجر والريح على الوجوه الصامتة السعيدة. ثم صمتت الموسيقى وغمر ضوء الصباح المكان، وحمل نزار كسينيا النائمة على يديه. وفجأة رأى ظلاماً بدل النور وشعر بألم في رأسه وسقط، واستدار على ظهره، أثناء السقوط، كيلا تصاب كسينيا، وهو يحملها أمامه كطفلة صغيرة، استدار لتسقط هي عليه ولا تصاب بأذى. أمسك بها بكلتا يديه، بمزيد من القوة والشدة، إلا أنها لم تعد معه. صرخ وقفز، في الظلمة، من الأرض وأعادته إليها ضربتان شديدتان أخريان على الرأس والصدر.

كانت طيور كبيرة تحط عليه وترتفع إلى الجو من جديد بعد أن تنهشه بمناقيرها وتمزق ثيابه وجسده بمخالبها. حاول أن ينهض، لكنه ما كان يستطيع بسرعة، فتخور قواه من الألم ومن الضربات الجديدة التي انهالت بها عليه الطيور الثقيلة. كان يتقلب ويزيح الرمال بيديه في يأس مستميت ملفعاً بظلام الليل الخالي، نازفاً البقية الباقية من دمه. أراد أن يصرخ ليستثير الهياج من أعماق نفسه، من بقايا الحياة المضمحلة. إلا أن الضربات القارصة من مناقير النسور ومخالبها التي تمزق العروق قطعت صراخه قبل أن يتمكن الشهيق من دخول الرئتين. وكانت ريح أجنحة النسور تعصف به، فلم يستطع أن يتنفس في هذه العاصفة التي جعلته يغص بما يتطاير من زغب وريش. وأدرك نزار أنه تلقّى الضربتين الأوليين بمنقارين على رأسه، قرب القفا، والدم يسيل الآن على رقبته. ثم إن إحدى حلمتي صدره قد انتزعت على ما يبدو، فالجرح في هذا الموضع يثير وخزاً وألماً فظيعاً.

وأخيراً تمكن نزار من النهوض للحظة. نشر يديه استعداداً لخطف أول نسر يهاجمه حتى يخنقه خنقاً. كانت النسور محلقة في الجو وقد قطعت شوطاً للهجوم عليه. داس على مسدسه صدفة وانحنى ليلتقطه، لكنّ الكواسر عاجلته وهجمت على ظهره. وتنبه هذه المرة واستطاع أن يحصي عدد النسور بناءً على عدد جراحه الجديدة بالمناقير. كانت ثلاثة. امتشق المسدس وانقلب على ظهره ليبعد أو يسحق النسور التي أنشبت مناقيرها ومخالبها فيه. إلا أن قواه كادت تخونه، فهوى كيفما اتفق، على جنبه، وانسحبت النسور بتحليق واطئ. فيما حاول هو أن ينهض

ليهدّف بشكل أفضل، فصرّت كل أجزاء هيكله العظمي المعروق كما تصرّ عظام سائر أبناء قومه. وشعر بالأسف على بدنه وعظامه وهو يسمع صريرها، فقد جمعتها له أمه ذات مرة من نطفتها البائسة ليس بدافع من الحب والمتعة واللذة، بل بسبب الضرورة المعيشية. وتصور نفسه حاجة للغير، حاجة من آخر أملاك المعوزين، لكنها تتعرض الآن للتبذير جزافاً، فاشتدّ هياجه، وجلس على الرمل في الحال بلا حراك. وانطلقت النسور تهاجمه من جديد وقد تلاصقت أجنحتها دون أن تشهق عالياً في السماء. تركها نزار تقترب أكثر، ثم ضغط على الزناد. رآها الآن بوضوح. وكانت ثلاثة بالفعل. أطلق النار بتنشين دقيق وببرود أعصاب، محافظاً على نفسه كشخص آخر غيره، كصديق عاجز وعزيز عليه. أطلق خمسة عيارات على النسور المهاجمة التي تكاد تنطحه. وقد مرقت فوقه على ارتفاع منخفض والهواء يئز من تحليقها الذي عجزت عن وقفه إما لأنها كانت ميتة أو لأنها أصيبت بجروح مميتة. وهوت على رمل الليل القاتم على بعد بضعة أمتار عن نزار.

كان شاغاتايف يرتعش من الذعر والتعب. حفر لنفسه كهفاً في الرمل ورقد متكوراً متقرفصاً ليتدفأ ويغفو دون أن يعبأ بالدم الذي ستنزفه جراحه الممزقة أثناء النوم ودون أن يهتم بصحته وحياته المقبلة.

فيما قطعت آيديم شوطاً كبيراً وابتعدت كثيراً في تلك الليلة حتى هدَّها التعب، فرقدت وغفت دون أن تسمع عيارات نزار. لكنها سرعان ما أفاقت قلقة، فهي تعلم أنه لا يجوز لها أن تنام

طويلاً. وواصلت سيرها. ارتفع القمر الباهت في منتصف الليل من وراء الأرض البعيدة وأنار الرمال بضوء خافت. تطلعت حواليها بعينين ثاقبتين لعلمها بأن من المستحيل أن تخلو الأرض تماماً على أية حال. وإذا سار المرء على الرمال يوماً كاملاً لا بدّ أن يصادف شيئاً ما أو يعثر على شيء. لا بدّ أن يصادف ماءً أو أغناماً ويرى طيوراً متنوعة أو يعثر على حمار ضال أو تتراكض قربه مختلف الحيوانات. قال لها المسنون إن في الصحراء خيرات بقدر ما في الأرض البعيدة، لكن عدد الناس فيها قليل، ولذا يظن البعض أنها خالية تماماً. إلا أن آيديم لا تعرف أرضاً أغنى وأفضل من الرمال أو من أحراش القصب في أهوار أموداريا.

وقفت الصبية على أعلى كثيب. جذب انتباهها ضوء القمر وهو يومض خافتاً في أحد الاتجاهات، بينما ينساب نوره بهدوء في باقي الأرض. كان هناك شيء ما يشوش عليه في ذاك الاتجاه. ذهبت إلى هناك وسرعان ما رأت نعجة صغيرة يافعة تنبش بأظلافها الرمل على قمة تلة غير عالية وتنثره على نحو بدا من بعيد، في الظلام المخلخل، فوق سراب وخيالات الصحراء المتموجة وكأنه حدث هام ملفع بالألغاز.

النعجة لا تزال فتية عفيفة. لعلها كانت تقتلع أعشاب الربيع المدفونة تحت الرمال وتقتات عليها. ارتقت آيديم التلة خلسة وأمسكت بالنعجة، فلم تُبدِ مقاومة لأنها لا تعرف شيئاً عن الإنسان. طرحتها الصبية وأرادت أن تغرز أسنانها في نحرها الضعيف لترتوي من دمها وتشبع. لكنها رأت في تلك اللحظة

على سفح الكثيب جمعاً من الأغنام تلهث كالبشر وتحفر الرمل بأظلافها لتبلغ الماء الكامن في أعماقه. تركت آيديم النعجة الفتية وركضت من أعلى الكثيب إلى القطيع. وقبل أن تبلغ أقرب نعجة قفز صوبها خروف وتوقف أمامها محنيّ الرأس استعداداً للهجوم. جلست أمامه برهة وراحت تفكر بذهنها الصغير: ما العمل؟ عدَّت الأغنام في القطيع فكانت أربعاً وعشرين مع النعجة الفتية وجديين وجدا لهما مرتعاً هناك. زحفت بهدوء إلى أقرب نعجة تحفر الرمال، ومضى الخروف في أثرها منتظراً. جرّبت الصبية بيدها الرمل في الحفرة التي حفرتها النعجة فكان جافاً لا أثر للماء فيه، بينما تجمع على شفاه النعاج المحيطة بها زبد الإرهاق بعد أن كانت تلتهم الرمل بأفواهها بين الحين والآخر وتبصقه مع آخر قطرات اللعاب. لم يكن الرمل يرويها، بل يرتوي من نسغها. اقتربت آيديم من الخروف. لم يكن نحيلاً جداً. وهو يلهث بعسر من شدة العطش ومن التوتر الذي تسببه له مهمات حياته كرائد للنعاج. أمسكت الصبية بقرن الخروف واقتادته وراءها. في البداية طاوعها رأساً، ثم توقف ليعود إلى رشده، لكن البنت سحبته، فسار خلفها. رفعت بعض النعاج رؤوسها وكفَّت عن نبش الرمال وسارت في أثر آيديم والخروف. وفيما بعد لحق الجديان وباقي النعاج بالجميع.

استعجلت آيديم وهي تجر الخروف وتتذكر المكان جيداً. لكنها لم تبلغ الوادي العميق إلا بعد أفول القمر في الفجر. وهناك حفرت الرمل وشربت. ثم تركت القطيع في الوادي، فانهمكت النعاج من جديد بنبش الرمال بأظلافها، فيما مضت

الصبية إلى موقف مبيت قومها. وزعلت عليهم عندما لم تجد في الوادي ولا بئراً واحدة. فالشيخ فانكا وسفيان ربما ماتا أو تكاسلا، وربما ارتويا لوحدهما دون أن يفكرا بحياة الآخرين. لمست آيديم كل النائمين في الموقف فوجدتهم فاقدي الوعي. لقد تعوّدوا على مجرد العيش. كانوا يتنفسون ولم يمت أحد منهم. أيقظت الصبية سفيان والشيخ فانكا وأمرتهما بأن يذهبا لرعي قطيع الأغنام وحراسته، بينما مضت هي إلى شاغاتايف لتعود به كي يتناول الطعام.

أيقظت آيديم نزار. صرفت وقتاً، فهو لم يفق في الحال. كان يحتضر ببطء لأن الدم ظل ينزف منه في النوم. ينبجس من الجروح بدفعات متباعدة ويستقر في الرمال. وفهمت الصبية كل شيء. عادت مسرعة إلى القوم، لكنها لم تجد أحداً، فقد تحركوا جميعاً صوب القطيع. هذا يزحف وهذا يجرجر قدميه، وذاك يتعكز على غيره. وجالت آيديم ببصرها بينهم بحثاً عن ثياب لينة غير ممزقة، لكنها لم تعثر على ضالّتها. فلم يبق من ثياب الجميع إلا أسمال بالية لا تصلح لشيء. وكان الملا شيركيزوف في سروال خفيف، لكنه غير نظيف بسبب عماه. خلعت آيديم قميصها وتفحصته. لا بأس به. فهي لا تزال صغيرة ولم تتجمع فيها العدوى والأمراض كما عند الشيوخ. تفوح من القميص رائحة العرق وجسد الصبية. لكنه نظيف، فالصحراء كلها نظيفة. عادت إلى نزار ومزقت قميصها وضمدت كل الجروح التي ينبع منها الدم على بدنه ورأسه.

كان شاغاتايف قد أفاق وراح ينقلب من جانب لآخر كي

يسهل على الصبية تضميد جراحه. فتح عينيه ورآها والنسور الميتة والرمال عبر غشاوة كثيفة رغم شمس الصباح المعتادة. حملق في النسور وعرف بينها الأنثى. كانت أكبرها حجماً، أما النسران الآخران الأصغر منها كثيراً فهما طفلاها. لقد جاءت إلى هنا مع أخلص أصدقاء زوجها، مع طفليه.

15

ظل شعب الجان يأكل ويداري مصائبه وويلاته أربعة أيام. وآيديم تراقب الجميع كيلا يفرط أحد في تناول الطعام، فتُوقف من يلتهم الكثير أو تضربه على عينه، وإلا فما من موضع آخر فيه يشعر بالألم. ونشأت قشرة على جراح نزار وأخذت تلتئم. سلَّم ثيابه الداخلية إلى الصبية فخاطت منها تنورة وبلوزة بعد أن كانت عارية. وقد تعوَّد سفيان أن يحمل طول العمر كل الأدوات المنزلية الضرورية من ثقاب وإبرة وخيوط ومخرز وسكين وسواها، مع هوية شخصية عتيقة. وطلب من آيديم أن ترتق ثيابه، فرتقت كل الثقوب الكبيرة في رداء العجوز، ثم رتقت، بالمناسبة، كل الأسمال التي يرتديها القوم وتلوح من خروقها الأجساد. واضطرت إلى تقصير ثياب الكثيرين لتحصل على خرق ترتق بها ثياب آخرين. كما خاطت من تلك الخرق سروالاً وقميصاً لأجل تاغان، فقد ظل عارياً منذ أن رمى ثوبه للريح على الرمل متصوراً أن الوقت حان لتصفية الحساب مع الحياة.

وصرفت آيديم في هذا العمل أربعة أيام أخرى. ولم يساعدها في الرتق والخياطة إلا الشيخ فانكا ونزار. زد على ذلك أنها كانت تراقب النظام العام في حياة الجان: ترتب توزيع الطعام

وتسهر على النائمين وتحرص على باقي الأغنام كي يكون هناك من يرعاها ويسقيها لئلا يصيبها الهزال ولا تستهلك أبدانها جزافاً. وفي الليل تربط الصبية كل نعجة بإنسان، وتترك الخروف ينام قربها وتربط رقبته ربطاً محكماً بحبل متين وتلفّ طرف الحبل على بطنها وتعقده. وبفضل هذه التحوطات لم تهرب ولا نعجة واحدة مع أن الأغنام تربض طول الليل دون أن تتناول علفاً ودون أن يزداد وزنها. وفي صباح اليوم التاسع من عثور آيديم على القطيع شد الجان الرحال وواصلوا سيرهم صوب موطنهم. وظلت لديهم عشر نعاج بالإضافة إلى الخروف، بعد أن التهموا ثلاثة عشر رأساً وثلاثة نسور. كانوا يَسيرون هذه المرة على ما يرام، ويشعرون بأنهم موجودون دون أن يرهقوا ذاكرتهم بالتفكير في أنفسهم.

واتضح أن وادي القصب يبعد مسيرة ثلاثة أيام بلياليها في خطو متوسط السرعة. لكن السائرين شاهدوا منذ اليوم الثاني تضاريس أوست-أورت الرمادية اللون الخالية من القمم، ورأوا العتمة عند سفح الجبل، عتمة الوهدة المقفرة ذات المنابع المرة النادرة. فرح الجميع وغذّوا السير وكأن السعادة مضمونة هناك والمنازل المؤثثة تنتصب مشرعة الأبواب في انتظار أصحابها. كان نزار يسير مسنداً أمه من ساعدها، ويبتسم كما لو يقف من جديد، كما في الطفولة، على عتبة الحياة العظيمة المرتقبة، وهو على استعداد للعمل الصبور المضني وفؤاده يتحسس النصر المؤزر، باستحياء وغموض.

في مساء اليوم الثالث اجتازوا آخر الرمال الفاتحة اللون على

طرف الصحراء وأخذوا ينحدرون إلى الوهدة. تطلّع شاغاتايف إلى تلك الأراضي، إلى السباخ الباهتة والتربة الطينية الرملية والثرى الداكن المعذب البالي الذي ربما تفتّت فيه عظام أهريمان المسكين بعد أن أخفق في بلوغ منزلة رفيعة مثل منزلة أرمزد ولم ينتصر عليه. فلماذا أخفق نزار شاغاتايف في بلوغ السعادة؟ ربما لأن مصير أرمزد وغيره من أهالي الأقطار النائية المليئة بالجنائن والبساتين ممقوت وغريب عليه، لا يبعث السلوى في قلبه ولا يستهويه. وإلا لاستطاع، وهو الهمام الصبور، أن يبني في وادي القصب ما بُني في خراسان أو أن يغزو خراسان. . .

شاغاتايف يحب التأمل فيما أخفق الناس سابقاً في بلوغه، لأن ذلك بالذات ما يلزم أن يحققه.

وبعد يومين آخرين اجتازوا الوهدة واقتربوا من سفح أوست-أورت. عثر نزار هنا على غدير من الماء العذب يغذيه سيل ربيعي من منحدرات السفح، فتوقفوا قربه للاستجمام ولاختيار مكان الإقامة الدائمية. ولم يبق عندهم سوى ثلاث نعاج ورابعها خروفها. لكن ذلك بحد ذاته لم يكن بعد أمراً مرعباً بالنسبة لقوم مثل الجان الذين استطاعوا أن ينتفعوا من خيرات الطبيعة في أسوأ مواضعها. وفي اليوم نفسه عثرت آيديم على عدة شعاب مسدودة مليئة بالعاقول وأشواك إبراهيم. وقد حملت الريح الجنوبية الشرقية تلك الأشواك إلى هنا من الصحراء. أما الأشواك المتباعدة التي لم تقع في الشعاب الميتة فقد حملتها الريح إلى أعالي المرتفعات المستوية واستمرت تتدحرج عليها صوب السهوب.

ذهب سفيان إلى المغارة التي كان يقيم فيها قبل مجيء شاغاتايف، ونصح بأن يستقر القوم كلهم في المنطقة المجاورة لمغارته، فهناك واد عريض فسيح تنمو فيه أعشاب سهبية، ويجري في وسطه جدول ضحل ينبع من أوست-أورت ولا يجفّ حتى منتصف الصيف. ومضى الجان إلى ذلك المكان. وفي الطريق إلى الوادي عثروا على آثار مواقفهم السابقة منذ عهد الأمراء. لم تبق هناك أية أشياء ملحوظة، كل ما تبقّى هو فسحة عادية وحفنات من الفحم وكتل الطين. وقد انتصب وتد خيمة نسيه الجميع ونهشه القيظ والرياح فبات بائساً مكسوفاً. ومن التربة لاح طرف طاقية طفل عتيقة، التقطتها آيديم ونظفتها وارتدتها.

الوادي الذي نصح به سفيان صالح للحياة. فيه كساء عشبي على امتداد طويل، وحتى الآن، في أواخر الصيف، لم تهلك كل أعشابه. ولا تزال بين السيقان الذاوية المصفرة سيقان حية خضراء. مجرى الجدول فارغ، ولكن على بُعد كيلومتر أو كيلومترين، في أعماق وادي القصب، تلوح مرآة مائية هي البحيرة التي يصبّ فيها الجدول الجبلي في الربيع وبداية الصيف. وهو يكفي للوجود. وعندما دخلوا ثغر الوادي تراكضت سلاحف كثيرة من بين أرجلهم ولوت أعناقها وراحت تتطلع إلى القادمين، كل سلحفاة تنظر بعين واحدة سوداء ثاقبة ورقيقة. وفرح شاغاتايف للسلاحف. كان قد ارتاح واستعاد قواه. وغدا كل شيء في الحياة ممكناً كالسابق، ويمكن على الفور تحقيق مصير أفضل.

توغّل نزار برفقة آيديم في مجاهل الجبل وبطاحه العالية المستوية الموات. كان يبحث هناك عن أشجار أو، على الأقل،

عن أحراش الغضى التي تنمو أحياناً في المنخفضات. فهو بحاجة إلى الأخشاب ليصنع منها مختلف الأدوات واللوازم المعيشية. وفي الطريق حمل الصبية كيلا تتعب، وقبّل وجنتيها وعينيها وشعرها. وروّح بذلك عن نفسه. كان يحب تحسس حياة الغير وتلمّس الأجساد، ويخيّل إليه أن فيها شيئاً جوهرياً أكثر سحراً وروعة مما فيه هو شخصياً. وغالباً ما تتحسن صحته ويصفو ذهنه لمجرد توفّر الفرصة للمس يد شخص ما، مثلما كان يلمس يد فيرا في حينه أو يد امرأة أخرى قبلها، يد طالبة في معهد الاقتصاد كانت تحبه لكنها ماتت من المرض في ريعان الشباب. وطوّقت آيديم بدورها رأس نزار ومسدت بأصابعها بقعتين خاليتين في شعره من أثر جراح النسور. ولم تنس أنها أكلت آنذاك فرخ النسر كله دفعة واحدة.

لم يكن مع نزار سوى سكين صغيرة، ولذا اضطر للعمل طويلاً كي يسقط شجيرة من ذوات الأخشاب اللينة كانت تنمو وحيدة وسط شِعب صخري قاحل وكأن طيراً أفلتِ حبتها من الجو ذات مرة.

وطوال عدة أيام كان يعمل في وادي أوست-أورت الذي اختير مكاناً للإقامة شخصان فقط، هما نزار وآيديم. أما الباقون فقد لازموا الكهوف التي حفروها على منحدرات الوادي ليقضوا الليل ويقبضوا على السلاحف ويطبخوا الطعام منها لأنفسهم، لكنهم يأكلون قليلاً، بدون شهية تقريباً، ويذهبون إلى البحيرة مرة في اليوم ليشربوا الماء ويرتووا. ولم يسمح لهم شاغاتايف بنحر النعاج الثلاث والخروف، فقد تركها من باب الاحتياط لأسوأ

الأحوال. عدّ نزار أبناء الوادي، من قضى نحبه ومن ظل على قيد الحياة. وافتقد طفلة في الثالثة من العمر، لم يتمكن أحد، لا أبواها ولا غيرهما من إخباره أين اختفت وكيف ماتت دون أن يلحظ موتها أحد. وما من شخص يتذكر متى اختطفتها الريح ورمال الصحراء وابتعدت بها عن الآخرين...

أخذ نزار وآيديم يجلبان الطين لبناء أول منزل، لكن أحداً لم يساعدهما في عملهما. وعندما استدعى نزار كلاً من سفيان والشيخ فانكا، وهما أفضل الجميع من حيث الصحة، جلبا الطين مرتين ثم كفّا عن العمل. اقتعدا الأرض وأخذا يتأملان مع أنه كان لديهما بسبب طول العمر وقت كاف للتأمل والتفكير بكل شيء وصولاً إلى الحقيقة.

وعندذاك جمع نزار كل أبناء الوادي وسألهم: هل ينوون العيش؟ ولم يجبه أي منهم...

تطلعت عيون شاحبة كثيرة إلى نزار بجهد متوتر كيلا تغمض من العجز واللامبالاة. وحزّ الألم في قلبه لأن قومه ليسوا بحاجة إلى الشيوعية، إنهم بحاجة إلى الغيبوبة والنسيان حتى تثلج الريح أبدانهم وتفتتها في الفضاء تدريجياً. وأشاح نزار بوجهه عن الجميع، ذلك لأن أفعاله وآماله لا معنى لها. ينبغي أن يحمل آيديم وينصرف إلى الأبد. انتحى جانباً ورقد ووجهه إلى الأرض. وهو يعرف أنه سيعود إلى هنا مهما كانت الجهة التي يذهب إليها. فشعبه أكثر الشعوب إملاقاً على وجه البسيطة. لقد أنفق هذا الشعب بدنه كله على أشغال الحشر الموسمية وفي بؤس الصحراء. ونسي هدف الحياة وحرم من إدراك مصلحته أيضاً،

لأن رغباته لم تتحقق بأي قدر كان. عاش الجان بفضل عفوية قوتهم اليومي الشحيح من لحم السلاحف وبيوضها والأسماك الصغيرة من البحيرة التي يشربون ماءها. فهل بقيت في هذا الشعب روح، وإنْ ضئيلة، حتى يمكن العمل معها لتحقيق السعادة للجميع؟ أم أن كل شيء جفَّ وانتهى، حتى التصورات التي هي عقل البؤساء ماتت وانتهت؟.. نزار يعرف من ذاكرة طفولته ومن تحصيله العلمي في موسكو أن أي استغلال للإنسان يبدأ من تشويه روحه وتكييفها للموت من أجل السيطرة، وإلا فالعبد لن يكون عبداً. ويعرف أن تشويه الروح قسراً يستمر ويشتد باطراد ما لم يتحول عقل العبد إلى جنون. ويبدأ الصراع الطبقي من قمع «الروح القدس» القابع في العبد، لاسيما وأن التطاول على ما يؤمن به السيد، التطاول على روحه وربّه، لا يغتفر أبداً، بينما تتفتت روح العبد في الأكاذيب والعمل الهدام. لا يزال نزار يتذكر ما رواه الشيخ فانكا عن الطاووس الذي أراد مرة أن يقتله في باحة مسجد في حيوى ويبيعه إلى تاجر روسي ليحنطه. استعجل الشيخ فانكا ورمى الطاووس المقدس بحجر دون أن يصيبه. آنذاك لاح بين الخمائل البعيدة حارس أو شخص غريب، فأخذ الشيخ فانكا ما وقعت عليه يده من تحت الشجيرات ورماه على رأس الطاووس. إلا أن هذا الأخير ابتلع في الحال ما رماه به فانكا ثم زعق بصوته المتقطع الكريه. فهجم عليه الشيخ ليخنقه بيديه، لكن المسلمين هرعوا وقبضوا عليه وسحبوه إلى الشارع وانهالوا عليه بالضرب حتى تصوروا أنه قضى نحبه، ثم ألقوا به في ساقية يابسة. وعندما كانوا يضربونه غطى وجهه بيديه وفهم من

رائحتهما أنه رمى الطاووس المقدس في المرة الثانية بقطعة من البراز الناشف. زحف الشيخ فانكا من الساقية حياً، لكنه صار يحب رمي كل الطيور المحلقة والجاثمة، وخصوصاً الحمام، بالأنجاس. وظل على هوايته هذه حتى مل منها بعد سنين.

لهث حيوان عند رأس نزار، فظن أنه نعجة. لكن الحيوان التهم أذنه وأخذ يدعكها بفم أدرد. كان ذلك هو الكلب العاجز الغاضب نفسه الذي رآه نزار في موضع قومه قرب أموداريا. لم يكن مع الآخرين في الصحراء. لعله تخلّف في مكان ما أو ظل يحرس الموضع المهجور، ثم دفعه الحنين للعودة في طريق مستقيم إلى وادي القصب الذي عاش فيه، على ما يبدو، في السنين الخوالي. أمسك نزار برأس الكلب وحناه إلى الأرض كي يربض، فربض طائعاً. كان يرتجف من الإرهاق شائخاً متوحشاً عاجزاً عن استهلاك حياته المعذبة وإنهائها، لكنه لا يزال واثقاً من نعمة وجوده، لأن تلك النعمة كامنة في صبره ذاته وفي بدنه النحيل المرتعش.

غفا الكلب جنب نزار. وظلت آيديم تعجن الطين وحدها بقدميها العاريتين وتحمل الماء في القربة من مسافة كيلومترين.

عندما أفاق شاغاتايف وجد عدة أشخاص جالسين حوله ينتظرون أن يفيق. وقال سفيان الذي هو أكبرهم سناً لنزار إن الشعب ضيّع روحه عمداً الآن ولا يعرف ماذا يريد ولا يستهويه الطعام الأفضل، ويتدفأ بأضعف دفء في قلبه، والقلب يتلقى هذا الدفء من الأعشاب والسلاحف والأسماك ومن عظام الإنسان نفسه عندما ينعدم الطعام.

مال سفيان على أذن شاغاتايف وأبعد الكلب عنه. كان هذا ينظر إلى البشر بنهم حزين. وأمنيته الدفينة الصعبة المنال أن يأكلهم جميعاً عندما يموتون. لم يأت إلى هنا بطريق منفصل مستقيم، بل جاء في أثر القوم، على مسافة بعيدة عنهم. وكان يأكل الجثث البشرية على الرمال ويختبئ نهاراً في أعماق الوهاد كيلا تراه نسور السهب وسائر الوحوش. وقال سفيان لنزار:

- أنت تسيء الظن بالناس. فالشعب يستطيع أن يعيش، ولكن لا يجوز له ذلك. فعندما يريد أن يأكل الرز المحمّر ويشرب النبيذ ويمتلك الثياب والخيام سيأتي إليه الغرباء ويقولون: خذ ما تريد من النبيذ والرز والإبل، خذ السعادة في الحياة بشرط...

- لن يعطيه أحد شيئاً. - أجابه نزار.

- أعطوه في السابق قليلاً - قال سفيان - كنا من زمان نمتلك حفنة رز ورغيف خبز وثياباً عتيقة وأنشودة المغني في المساء عندما كنا نخدم البايات...

- أمرتني أمي أن أطعم نفسي بنفسي عندما كنت طفلاً صغيراً. - اعترض نزار - ما كان لدينا قليل، وكنا نحتضر.

- قليل - عقّب سفيان - لكننا كنا دوماً نريد الكثير: نريد نعاجاً وزوجة وماءً من الساقية. ففي الروح دوماً مكان خال يريد الإنسان أن يخبئ فيه سعادته. وكنا نعمل من أجل القليل، من أجل الكفاف من طعام شحيح حتى جفّت عظامنا.

- تلك كانت روحاً غريبة. - قال نزار.

- لم نر روحاً غيرها - أجاب سفيان - أقول لك إذا كنا قد صرنا كالموتى من الجوع والعمل من أجل الطعام الشحيح فهل يكفي حتى موتنا نفسه لنكسب السعادة؟

نهض نزار.

- حياة واحدة تكفي. روحنا الآن في هذا العالم ولا روح غيرها.

- سمعتُ ونحن نعرف أن الأغنياء ماتوا جميعاً - قال سفيان بلامبالاة - ولكن اسمع ما أقول. - مسد سفيان جزمة نزار الموسكوبية العتيقة - شعبك يخشى الحياة، تعوَّد على غيابها ولم يعد يصدق بوجودها. وهو يتظاهر بالموت كيلا يأتي السعداء والأقوياء ويعذبونه من جديد. لقد ترك لنفسه أقل ما يمكن، ترك لنفسه ما لا حاجة لأحد به، كيلا يطمع أحد به عندما يراه.

انصرف سفيان والأشخاص الذين جاؤوا معه، فيما مضى نزار إلى آيديم وظل يعمل معها حتى المساء. وعندذاك رتب لها فراشاً في كهف ناشف لتنام. وأخذ يعمل من جديد في صنع لبنات من الطين الممزوج بالقش لبناء أول منزل. لم يكن أحد قربه، والوادي كله خال، فقد تفرق الجميع. ربما ذهبوا لاقتناص السلاحف أو لصيد الأسماك في البحيرة. عمل نزار بحكمة وبسرعة متزايدة. وفي ساعة متأخرة من الليل ارتقى المرتفعات ليرى أين ذهب الآخرون. كل شيء مرئي في ضوء القمر العالي. غمر الضوء الصافي أوست-أورت المقفر وألقى بظل الجبال على منخفض وادي القصب، ثم انسحب من جديد على الصحراء المصاصة الممتدة حتى جبال إيران. كانت النعاج الثلاث

والخروف ترعى في الشِعب المجاور غير العميق وتنبش بهسيس في أكوام العاقول بحثاً عن عيدان حية خضراء بين الأشواك. وفي ظلال أوست-أورت السوداء، حيث يبدأ وادي القصب، لاح بصيص نار، وعلى مقربة من ذلك الموقد خيّمت سحابة خفيفة من الضباب على البحيرة. هبط نزار من المرتفع ومضى صوب النار. بعد نصف ساعة اقترب منها على مسافة معقولة ورأى القوم كلهم جالسين حول موقد تشتعل فيه أحطاب الغضى بهدوء. كانوا ينشدون ولم يروا نزار. أنصت إلى إنشادهم. وكان في الطفولة قد سمع أغاني كثيرة من المنشدين ومن أمه ومن شيوخ عديدين. وهي أغانٍ رائعة لكنها تثير الشفقة. أما الأغنية الحالية فلها معنى لا يعرفه. فيها مشاعر ليست من صلب قومه، لكنها تناسبه أكثر من أحزانه. وسمع نزار حتى صوت أمه الخافت الخجول. تقول الأغنية: لن نبكي عندما تأتينا الدموع، ولن نبتسم من الفرح، ولن يبلغ أحد قلبنا القابع في الأعماق، فسيظهر بنفسه للناس ولكل الأحياء ويمدّ لهم يديه عندما يحين وقته الوضاء وهو قريب. نحن نسمع الروح مسرعة في قلوبنا تريد أن تأتي لنجدتنا... وانتهت الأغنية. وحرك الشيخ فانكا جمر الموقد بعصا وأخرج منه السميكات المشوية وذاقها وأعاد إلى الجمر السميكات التي لم تنضج بعد.

عاد نزار دون أن يحس به أحد. وانهمك بصنع اللبنات من جديد، وظل يعمل حتى ذاب القمر في السماء وأشرقت الشمس. وفي الصباح رأى القوم لا يزالون جالسين حول الموقد المنطفئ. والشيخ فانكا يتحرك ويهزّ بدنه، لعله كان يرقص. صمّم نزار على

مواصلة عمله، فالليل انقضى والوقت غير مناسب للنوم. كان يصنع اللبنات في قوالب الطين، ويصبّ في هذا العمل كل قوى فؤاده. وآيديم لا تزال نائمة. وهو يتردد عليها في المغارة ليغطيها بالأعشاب ويحميها من الحشرات والذباب. فليترعرع جسدها في النوم، لتكبر من أجل حياة مديدة. وعند الظهر جاء الشيخ فانكا. خلع السروال الذي خاطته له آيديم من الخرق، بدلاً من سرواله الذي تمزَّق، ونزل إلى حفرة الطين البليل وراح يعجنه برجليه النحيفتين المتخشبتين.

16

بحلول الخريف تمّ في وادي أوست-أورت إنشاء أربعة منازل صغيرة من اللبنات يطوّقها سياج طيني واحد. وفي هذه المنازل الخالية من النوافذ لعدم توفّر الزجاج سكن الجان كلهم وتخلصوا بالكامل لأول مرة من الريح والبرد ومختلف الحشرات اللاسعة. بعض الأشخاص لم يتعودوا رأساً على النوم والعيش بين الجدران الصمّاء، فكانوا يخرجون بين الحين والآخر ويتنشّقون الهواء ويمتّعون أنظارهم بالطبيعة ثم يعودون إلى مأواهم على مضض.

اقترح نزار على القوم أن يشكّلوا مجلساً للشغيلة، فشكّلوه من كل الموجودين، حتى الصبية النشيطة آيديم، وعيّنوا سفيان رئيساً له.

صار شعب الجان يعيش دون أن يشعر بموته يومياً، وأخذ يجدّ في البحث عن الطعام في الصحراء والبحيرة وفي جبال أوست-أورت، كما تعيش في العالم عادة أغلبية البشر. وبجهود نزار توفّر لهم طعام الغداء كل يوم. وهو يعرف أن ذلك في منتهى الأهمية. لأن الأقلية من البشر العائشين على وجه البسيطة تتناول طعام الغداء بانتظام. أما الأغلبية فلا. وكانت آيديم تدبر الشؤون

المنزلية جيداً وترغم الجميع على البحث عن الطعام وجلب الأعشاب والأسماك والسلاحف والمخلوقات الصغيرة من شعاب الجبال. وتسخن بنفسها، مع جولشتاي، الأعشاب الصالحة للأكل لتحصل منها على الدقيق، وقد أشارت على سفيان في الوقت المناسب أن يحوك الشباك من الأعشاب المفتولة لاقتناص الطيور التي تحط قرب البحيرة لشرب الماء. وعلى مسمع من الجميع كانت تقول للذين ينسون واجبهم في أن يعيشوا ويأكلوا إنها عندما تكبر قليلاً ستنجب أناساً آخرين يختلفون تماماً عن هؤلاء التافهين الذين تضطر إلى إطعامهم هي الطفلة الصغيرة، وإن أمهاتهم غرقن في الدماء حين ولدنهم أما هم فيعيشون وكأنما يتفضلون على الغير، وإنها ستحفر مع نزار غداً حفرة كبيرة وليرقد فيها كل من لا تعجبهم الحياة في هذه الدنيا! وتقول آيديم لرجل أو لآخر:

- لسنا بحاجة إلى التعساء. سأقتلع إحدى عينيك وأعلّقها على الحائط وستنظر إليها بعين واحدة يا أعور!..

لكن شاغاتايف لم يكن راضياً بتلك الحياة العادية البائسة التي بدأ قومه يعيشونها. فهو يريد أن يجعل السعادة الكامنة منذ الميلاد داخل كل تعيس تظهر وتنمو وتغدو قوة مصيرية فاعلة. فالتوقع العام والاهتمام بالشيء ذاته، بالشيء الضروري الوحيد، يساعدان الروح المتعطشة النابضة في قلب الإنسان على الخروج إلى دنيا اللّه، وإلا ستختنق هناك إلى الأبد إذا عُدمت العون في التحرر والانطلاق.

وسرعان ما تساقط الثلج. وازدادت الصعاب أمام نزار

شاغاتايف والآخرين في الحصول على الطعام. اختبأت السلاحف وغطت في السبات، ومرقت أسراب هائلة من الطيور فوق أوست-أورت قادمة من الشمال متجهة إلى الجنوب ولم تحط لتشرب الماء من البحيرة الصغيرة ولم تلاحظ وجود البشرية المصغرة التي تعيش تحت. فيما تجمّدت جذور الأعشاب الصالحة للأكل وفقدت مذاقها، وانزوت أسماك البحيرة في غياهب السكون قريباً من القاع. نزار يفهم كل تلك الملابسات. فقرّر أن يذهب وحيداً إلى مستودعات الأغذية في حيوى ليحصل على قرض غذائي لشعبه يكفيه لفصل الشتاء. رتقت له آيديم ثيابه الممزقة البالية وأصلح بنفسه حذاءه بمسامير خشبية منزلية الصنع وسيور ضيّقة من جلد الغنم. ثم ودّع كل فرد من الحاضرين وطلب منهم أن ينتظروا عودته سريعاً وأخذ يهبط إلى وادي القصب. لم يأخذ معه طعاماً بقصد التوفير مؤملاً في قطع المسافة كلها بلا طعام في غضون ثلاثة أيام.

واختفى في الضباب البعيد بتلك البقاع الخالية. فيما جلست آيديم على المنحدر الجبلي تبكي والدموع تتساقط من عينيها السوداوين البراقتين ظانّة أن نزار لن يعود أبداً. لكنها في الأيام التالية لم تبكِ عليه ولا مرة. فقد شغلتها الشؤون المنزلية والحاجة والمسؤولية كيلا يموت الناس جوعاً. كانت تتنهد أحياناً كعجوز مسكينة، وكان الجان لا يزالون يعملون بفتور، فهم غير واثقين من أن الحياة مزيّة تستحق التقدير. لقد أنساهم البايات تلك الثقة من خلال أشغال الحشر الموسمية، ولم يعودوا يقدّرون وجودهم ولا يفهمون اللذة عموماً، حتى لذة الطعام.

بعد ذهاب نزار وقع العبء الأكبر من الأعمال على آيديم. لكن العمل لم يكن يعذبها. فقد علمت من شاغاتايف أن الأغنياء انتهوا وأنها أكثر الناس فقراً وستتحسن أحوالها قريباً، وستتحسن أكثر فيما بعد.

بمرور ثلاثة أيام على غياب نزار تذكرته الصبية وعبست وكادت تبكي مكتئبة، لكن الوقت مساء وعليها أن تسرع في البحث عن الخروف والنعجات التي ابتعدت إلى الفسحات النائية، ولذا أجّلت الحزن على نزار إلى أن ترقد للنوم. وعندما اقتادت الأغنام إلى الديار أعشى بصرها ضوء مجهول. قرب منازل الطين أنارت أضواء ساطعة لم تشهد لها آيديم مثيلاً من قبل. توقفت وهمّت أن تعود أدراجها كي تختبئ مع الأغنام في كهف أو وهدة مقفرة، ثم تأتي غداً في النهار لترى ما يجري هنا. اقتادت الخروف من قرنه وراحت تنظر مبهورة إلى الأضواء قرب المنازل، وبدد الاستغراب والفضول خوفها، فاستدارت بالقطيع الصغير نحو الديار. وفكرت بأن تلك الأضواء إما وحوش وإما بدعة ذكية من البقاع التي يعيش فيها البلاشفة.

ولمحت الصبية نزار يمرّ قرب الأضواء. فهرعت إليه وتشبثت بساقه مرتعشة بجفون متلاصقة. رفعها نزار وحملها إلى سرير العشب في المنزل لتنام، ثم عاد لتفريغ السيارتين. كان قد قابلهما في اليوم الثاني من طريقه عندما خرج من وادي القصب إلى الصحراء. فبأمر من طشقند انطلقت شاحنتان من مدينة حيوى قبل أربعة أيام. إحداهما محمّلة باللحوم المعلبة والرز والبقسماط والدقيق والأدوية والكيروسين والفوانيس والفؤوس والمعاول

والثياب والكتب وغيرها من الأمتعة، وفي الشاحنة الثانية راكبان وبراميل البنزين وزيت المحركات وقطع الغيار.

كانت طشقند قد أوعزت بالبحث عن قبيلة الجان المترحلة في منطقة ساري-كاميش (وادي القصب) أو بين منطقتي جبال أوست-أورت وبحر آرال ومساعدتها بكل الوسائل، وعدم عودة الشاحنتين إلا بعد العثور على القبيلة أو على دلائل هلاك جميع أفرادها.

في منتصف الليل انتهى تفريغ شاحنة المؤن، وجلس شاغاتايف يكتب تقريراً إلى طشقند عن أحوال شعب الجان، في حين انشغل السائقان ومدير البعثة بإعداد السيارتين للعودة. ظل نزار يكتب حتى الفجر. واقترح في نهاية رسالته ترك هذا الشعب يلتقط أنفاسه بعد مصائب السنين (فقد توفّرت له الفرصة الآن لهذا الغرض وسيقضي الشتاء ولديه ما يكفي من طعام بفضل معونة الجمهورية)، والشيء الأهم هو أن يستعيد كل شخص بدنه الذي استهلكه حتى العظام تقريباً فأصابه الهزال الشديد وضعفت مشاعره وتردّى تفكيره الواعي حالياً إلى أدنى مستوى.

سلَّم شاغاتايف الرسالة لمدير بعثة المعونة وتحركت الشاحنتان صوب واحة حيوى. كان الجميع لا يزالون نائمين، فالوقت مبكر، والثلج يستقر في وادي القصب. أخذ نزار فأساً ومعولاً وأيقظ الشيخ فانكا وتاغان وذهب معهما لجمع أحطاب الغضى. وعند الظهر عادوا بها. سخنت آيديم الفرن بالحشائش اليابسة وأخذت تعدّ الغداء من الطعام الجديد الذي لم يجرّبه أحد تقريباً من قبل.

شبع الجان من اللحوم المعلبة والرز في الحال، لكن هذا

الطعام أتعبهم وجعلهم ينامون بعد الغداء. وفي المساء طلب نزار إعداد غداء ثان، وأخذ يخبز بنفسه أرغفة من الدقيق الأبيض، ثم أعدّ شاياً وقهوة لكل الأذواق. وبعد الغداء الثاني غط الجان في نوم عميق حتى ظهر اليوم التالي. شاغاتايف يعرف أن هذا الطعام مضرّ بعض الشيء، لكنه كان مستعجلاً لإطعام قومه كي تتقوى عظامهم ويستعيدوا ولو قليلاً من ذلك الشعور الذي تزخر به كل الشعوب ما عداهم، شعور الأنانية وحفظ الذات.

الغداء الثالث كان من إعداد سفيان. لقد رأى ذات مرة ما كان يأكله البايات في خوارزم، فأعدّ، على الذاكرة، أطباقاً مماثلة تقريباً.

وكان نزار يتابع بارتياح كبير كيف يأكل شعب الجان بلا نهم، فيضع اللقمة في الفم بحذر وبإدراك للضرورة وبتأمل وادع وكأنه يتصور وجوه وأرواح الأشخاص الذين جمعوا ذلك الطعام بشق الأنفس وأهدوه إياه.

واصل شاغاتايف حياته بصبر في انتظار اليوم الذي يبدأ فيه بتأمين السعادة الحقيقية للحياة العامة التي ليس هناك ما يستحق ممارسته سواها والقلب يشعر بالخجل لغيابها. كان يتكلم مع أمه في أحيان نادرة، وهي لم تعد تطلب منه شيئاً، بل تكتفي بلمس ساقيه وبدنه من خلال الثياب. كان يمسك برأسها المحني قرب بطنه ويفكر بما ينبغي له أن يفعله ليكفّر عن ذنبه ويبعث السلوى في نفس هذا الكائن المحطم الذي بدأ هو حياته في أحشائه. وهو لا يعرف أن أمه لا تتذكره إلا عندما تلومها آيديم، فكانت تمسح دموعها خفية وتدرك أنها يجب أن تحب ابنها حتى إذا

افتقدته ولا تتذكر وجوده في مشاعرها، ولذا فهي تلمسه كأي شخص طيب غريب.

بعد بضعة أيام اشتدّ البرد كثيراً ودعت الحاجة إلى تسخين الفرن لدرجة عالية في أحد المنازل وإعداد غداء وافر في الوقت ذاته، لأن الفرن يستخدم للتدفئة والطبخ معاً. أما المنازل الأخرى فليس فيها أفران. هبّت ريح شديدة من أعالي أوست-أورت حاملة حبات برَد صغيرة. اقتادت آيديم الأغنام إلى الحجرة التي تنام فيها هي وتركتها هناك لتقضي الليل. وجلب نزار ماءً من البحيرة بشق الأنفس في خمس قِرَب على عربة يدوية. صعد المرتفع في مواجهة الريح الجائحة وراح يدفع العربة بجهد كبير. وبسبب هذه الريح وظلام الشتاء الذي يخيّم على العالم كله مبكراً، وبسبب وادي الموت المقفر، وادي القصب الذي كادت الريح تحمل شاغاتايف وتلقي به إليه، اقتنع الفتى بضرورة وجود حياة أخرى غير هذه.

في أحد البيوت كان النزلاء يتحركون والضوء يتسرب إليه من المدخل المفتوح. تناولوا الطعام ثم رقدوا. والأواني الجديدة تطقطق بين يدي آيديم وهي تنظفها من مختلف الفتات والأوساخ وتقول للآخرين أن يبقوا الليلة هنا، فالدفء أكثر وإنْ ضاق المكان.

كان الوقت حوالى السادسة، لكن شعب الجان رقد كله متحاشكاً في حجرة واحدة ونام متلاصقاً كما في النعيم. تناول نزار الطعام وقوفاً، فلا مكان للجلوس. وذهبت آيديم للنوم في المنزل الآخر الذي اقتادت إليه الأغنام، ولحق بها نزار.

وفي الصباح هبّت زوبعة ثلجية، لكن الجو تدفأ بعض الشيء. لم يبدر من المنزل أي صوت مع أن الوقت صباح. كانت آيديم نائمة بين نعجتين. والنعاج نائمة هي الأخرى، إلا أن الخروف ينظر إلى نزار كالمخبول. وما كان الفتى يريد إيقاظ الصبية، فمضى إلى المنزل الدافئ الذي ينام فيه الآخرون، وأشعل الفانوس وتطلّع حواليه.

كانوا نائمين بوضعية الأمس نفسها، وكأن أحداً لم ينقلب على جنبه خلال الليل الطويل. وصارت الابتسامة الدائمة تعلو وجوه الكثيرين. كان الملا شيركيزوف نائماً بعينين مفتوحتين وقد وضع يده اليسرى تحت ظهر جولشتاي كي يشعر بوجودها دوماً ويحرسها. والفارسي العجوز عبد اللّه ينظر بنصف عين صافية، ولم يستطع نزار أن يفهم ما يراه هذا الإنسان ويفكر فيه الآن وأية أمنية للروح تنطوي عليها جوانحه: هل هي أمنية نزار نفسه أم أمنية مغايرة تماماً؟

قضى شاغاتايف بقية النهار قرب آيديم معجباً بمحيّاها وأنفاسها يتطلع إلى حمرة الفتوة التي تصطبغ بها وجنتاها كلما طال النوم. أطلق سراح الأغنام كي تنبش في الثلج وتتقلب في نقاوة الشتاء. ثم أخذ يد آيديم مسروراً بصمت لأن البلاشفة يقفون كجدار حديدي دفاعي حول هذا الكائن الغض المسكين، وهو نفسه موجود هنا لهذا الغرض وحده.

أفاقت الصبية في العصر. ولامت نزار لأنه لم يوقظها قبل ذلك فضاع عليها النهار. وطلب منها نزار أن تذهب لتتفقد الباقين، فهم أيضاً لا يزالون نائمين. عندما سمعت آيديم بذلك

ندت عنها صرخة قاسية وهرعت إلى المنزل المجاور. رفعت ستارة الحشائش عن المدخل كي يصفعهم البرد فيفيقوا. إلا أن النيام تحاشكوا وتلاصقوا بعضهم ببعض، وانكمشوا باسمين، وظلوا يغطون في نوم عميق.

ومرّت ليلة ثانية. في الصباح تفقّد نزار النائمين مرة أخرى. تغيّرت وجوههم أكثر من أمس. احمرّ وجه الشيخ فانكا من الانتعاش، فبدا الآن في حوالى الأربعين. وحتى سفيان الطاعن في السن راق منظره ولاحت في تعابير وجهه أمارات الاهتمام. وكان قره-شورما، وهو في حوالى الستين، مورد الخدين مكتنز الوجه يتنشق الهواء بشهيق عميق وكأنه يرتوي بعد عطش شديد. انحنى نزار على أمه فلم ير تغيراً على وجهها. يحتمل أن لا تستيقظ زهرة الجبال جولشتاي، فقد غارت عيناها واسودّ خداها وانسحب عليها ظل الأرض. كان بؤبؤا الملا شيركيزوف مفتوحين كالسابق، ولاح فيهما لمع بعيد كأنما يتسرب من أعماق الدماغ، وخيّل لنزار أن البصر عاد لهذا الضرير.

سخن شاغاتايف الفرن للتدفئة ومضى يتنزه مع آيديم، بعد أن سنحت له ساعة من الفراغ لأول مرة خلال شهور عديدة. الزوبعة الثلجية توقفت ليلاً. ويتساقط الآن آخر ثلج خفيف. وفي أعلى طبقات أوست-أورت لمع ضوء الشمس مرحاً باهراً يبشر بالانتصار الأبدي. وكانت آيديم تتراكض على الثلج ضاحكة، تختفي بعيداً وترتمي في الشعاب المليئة بالثلوج، ثم تلقي بنفسها على رقبة نزار من الخلف دون سابق إنذار. وأخيراً أمسك بها. وحملها راكضاً صوب الوهدة، فاكتشفت نواياه وقالت:

- ارمني ولا تخف. لن أموت!

في طريق العودة إلى المنزل سارت آيديم جنبه على قدميها وسألته:

- متى يستيقظون يا نزار؟

- قريباً، قريباً . . . ربما استيقظوا الآن.

وفكرتْ متأملة.

النار في فرن المنزل تكاد تنطفئ، فغذّاها نزار بالحطب وأعدّ طعام الغداء مع آيديم للقوم كلهم على أية حال.

وفي المساء أخذ البعض يستيقظون. سفيان أول من صحا من النوم. ثم أفاق الشيخ فانكا والملا شيركيزوف. وفي منتصف الليل صحا الجميع، ما عدا جولشتاي. فقد قضت نحبها. حملها نزار إلى منزل فارغ بارد ووضعها على فرشة من الحشائش اليابسة. تحرك الدم في القوم بعد النوم الطويل، فجلسوا يتناولون الطعام في المأوى الطيني الدافئ، فيما رقد نزار جنب أمه وغفا.

قدّمت آيديم طعام الغداء للحاضرين وانهالت عليهم بالتقريع لأنهم يستطيعون أن يطووا في النوم ليلتين متواليتين، ولا يستطيعون أن يعيشوا حياتهم الوحيدة في اليقظة. فقهقه الشيخ فانكا ساخراً منها وقال:

- سنموت هذه المرة، فلا تحزني علينا يا صبية. . .

ذهبت آيديم، لتنام الليل، في المنزل الذي يرقد فيه نزار مع المرحومة أمه. انزوت في الركن بهدوء وغفت في الحال. وعند الفجر أفاقت ومضت لأداء الشؤون المنزلية. وكان المنزل الدافئ

الذي أمضى فيه القوم الليل خالياً منهم. ولا أحد في المنزلين الآخرين أيضاً. أحصت آيديم على وجه التقريب كل الأشياء والأمتعة والموجودات العامة وذهبت إلى حجرة احتياطي الأغذية التي تسلّموها من حيوى، واشتد بها القلق حتى تلمّست حيطان المنازل، فلم يسعفها ذلك في معرفة أي جديد. الأغذية كاملة غير منقوصة، والمعلبات مرتبة مثلما رأتها أمس عندما أخذت بعضها لإعداد طعام الغداء. أكياس الرز والدقيق في مكانها دون أن يمسّها أحد. وربما افتُقِد شيء، لكنه قليل جداً، ربما كمية من التبغ والثقاب اللذين يستهلكان بلا حساب.

ارتقت آيديم المرتفعات من الوادي. الشمس الصغيرة تنير الأرض الكبيرة بكاملها، والضوء يكفي ويزيد. والثلج يلمع في وادي القصب وعلى قمم أوست-أورت. هبّت ريح خفيفة، لكن السماء الصافية تبعث دفئاً، والجو رائع في كل مكان. ضيَّقت الصبية جفونها وتطلعت حواليها أمداً طويلاً فلاحظت أربعة أشخاص يسيرون فرادى على مسافة كبيرة بعضهم من بعض. مضى أحدهم في وادي القصب صوب مغيب الشمس، وسار آخر على المنحدرات السفلى لجبال أوست-أورت صوب أموداريا، واختفى الاثنان الآخران كل على انفراد في المرتفعات البعيدة يشقان طريقهما في الجبال باتجاه الليل.

أيقظت الصبية نزار فمضى لوحده وقطع عدة كيلومترات. صعد إلى أعلى طبقة في السفح يلوح منها العالم بعيداً بكل أطرافه تقريباً. ورأى من هناك عشرة أو اثني عشر شخصاً يسيرون على انفراد في كل اتجاهات الدنيا. بعضهم يسير صوب بحر قزوين،

وبعضهم متوجه إلى تركمانيا وإيران، واثنان منهم يسيران متباعدين نحو شارجوي وأموداريا. ولا أثر للذين توجهوا عبر أوست-أورت إلى الشمال والشرق، فقد ابتعدوا كثيراً أثناء الليل.

تنهّد نزار شاغاتايف وابتسم: كان يريد أن يبني هنا لأول مرة، من قلبه الوحيد الصغير، من حماسته ومن ذهنه الضيق، حياة حقيقية على طرف وادي القصب، على طرف القاع في جحيم العالم القديم. لكن البشر أعرف بما هو ضروري لهم. ويكفيه أنه ساعدهم في البقاء على قيد الحياة، فليبلغوا السعادة بأنفسهم وراء الأفق...

عاد على مهل وبكى في الطريق.

خيّل إليه مع ذلك أن الحياة السعيدة كانت موجودة هنا أو أنها قد بدأت رغم كل المصائب، وأنها ممكنة التحقيق في شعب صغير بأربعة أكواخ بقدر ما هي ممكنة وراء أي أفق من آفاق الأرض. انتشل من تحت الثلج كومة من العاقول وحملها إلى المنزل الذي يحتوي جثة أمه. ها هو يودّعها إلى مثواها الأخير مثلما ودّعته آنذاك في الطفولة.

جلست آيديم وحيدة في الركن قبالة جثة العجوز. كانت تخشاها، ويثير فضولها النظر إليها وإلى ما لا يرى الآن. وسألت:

- هل تريدني أن أبكي عليها يا نزار؟

- لا داعي للبكاء.- قال نزار - اذهبي واسقي النعاج. هل ودّعك أحد منهم.

– كلا. كنت نائمة. – أجابت آيديم – قال لي الشيخ فانكا عندما انصرفتُ...

– ماذا قال لك؟

– قال وداعاً يا صبية. أرجلنا تسير قليلاً الآن والبطن يتنفس، حان وقت الحياة. هذا كل ما قال.

– وماذا قلت له؟

– لا شيء... قلت له أرجل الحمير تسير أيضاً.

– ولماذا الحمير؟

– قلت ذلك على أية حال.

مضت آيديم لتسقي الأغنام، بينما أخذ نزار معولاً وذهب ليحفر قبراً على المرتفعات. ثم عاد في المساء بعد أن وارى أمه في التراب. حينئذ نظفت آيديم الحجرة الدافئة التي نام فيها شعب كامل ارتحل إلى مكان مجهول. وضحكت: حتى الملا شيركيزوف الضرير ذهب، فهل يعقل أن عينيه أبصرتا شيئاً حالما أكل الكثير؟

17

قرر نزار أن يقضي الشتاء مع آيديم في المنازل الطينية الأربعة. . . وبعد أن فقد، دفعة واحدة، كل الأشخاص الذين سهر عليهم أخذ يجوب وحيداً سفوح أوست-أورت الخالية. وكانت الصبية تطبخ الطعام وترتق الثياب وتنظف مربض الأغنام أو تقوم بأعمال منزلية أخرى، فالمشاغل لشخصين لا تقل كثيراً عن المشاغل لشعب الجان كله. ومن حين لآخر تخرج من الحوش لترى ما إذا ابتعد نزار كثيراً، فهو يشعر بالضجر ولا بدّ له من العيش معها وحدها. إلا أن ضجره وحنينه إلى الشعب الهارب لم يستمرا طويلاً. ظل يتجول بضعة أيام مندهشاً لأن وطنه ليس بحاجة إليه ولأن أبناء جلدته، أبناء الأرض الواحدة، أسدلوا عليه ستار النسيان في ذاكرتهم وتركوه مع ابنتهم الصغيرة الوحيدة يتيمين في أحضان الصحراء. لم يكن يفهم هذا النسيان اللامبالي المطبق. فهو يتذكر أناساً مجهولين ماتوا من زمان، يتذكر حتى أولئك الذين ما كانوا يعرفونه وما كان ينتظر منهم نفعاً. وإلا فإذا طوى النسيان السريع القتلى والمفقودين فهل يبقى للحياة معنى؟ لا شك أنها تغدو بائسة ليس للمرء فيها سوى أن يتذكر نفسه. لكن شاغاتايف لم يتحمل طويلاً أحزان الوحدة والفراق. فأخذ

يتعايش مع الملابسات، مع آيديم والأغنام، مع المنازل الخالية، مع الحيوانات الصغيرة المتواجدة في كل مكان في الطبيعة، بل حتى مع الشجيرات المتجلدة.

كان يعثر على سلاحف نائمة في حفر دافئة منزوية في المنخفضات ويحملها إلى المنزل. تدفأ بعضها من برد الشتاء وانتعش، وظل البعض الآخر يعيش في سبات مستجمعاً قواه للصيف القادم الطويل. . . وأدرك نزار مندهشاً أن بالإمكان العيش مع الحيوانات وحدها، مع النباتات الخرساء، مع الصحراء الممتدة في الأفق، إذا كان لديه في أقرب منزل ولو شخص واحد، حتى وإن كان طفلة مثل آيديم. وهنا أيضاً، في طبيعة أوست-أورت البائسة، في قاع وادي القصب المتهرئ، مهمة كبيرة تكفي لحياة بشرية كاملة. يستحيل أن تكون كل الحيوانات والنباتات بائسة حزينة. إنها تتظاهر بذلك. فهي في حالة من النوم أو التشوّه الوقتي المؤلم. وإلا يمكن القول إن القلب البشري وحده ينطوي على الحماسة الحقيقية، في حين أن هذه الفكرة سخيفة فارغة لأن عيني السلحفاة تتأملان أيضاً، وللشوك عبير عاطر، وذلك دليل على كرامة وجودهما الذي لا يحتاج إلى إضافة من روح الإنسان. ربما هما بحاجة إلى مساعدة طفيفة من نزار شاغاتايف، لكنهما في غنى عن كبرياء الإنسان وعن التساهل أو الإشفاق من جانبه. . .

في الليل تشعل آيديم الفانوس وتجلس إلى المائدة قبالة نزار وتنجز ما لم تنجزه في النهار: تمشط شعرها الفاحم اللماع، وتخيط بساطاً من الخرق العتيقة وقطع الجنفاص، وتتطلع باسمة

إلى الصور في الكتب دون أن تفهم معناها، أو تنظر إلى نزار دون أن تغضّ بصرها عنه في محاولة لقراءة أفكاره: هل يفكر فيها أم في شيء آخر؟

- نزار، لماذا نعيش؟ هل ستتحسن أحوالنا لأننا نعيش؟ - سألته في إحدى الليالي الطويلة.

- ألست بخير معي؟ - أجابها نزار بسؤال مقابل.

- بلى، أنا بخير الآن. - قالت الصبية وبللت الخيط في فمها - سألتك لمجرد السؤال. لساني يثرثر بلا سبب...

عيناها السوداوان الواسعتان المفتحتان مفعمتان بقوة براقة، قوة الطفولة والمراهقة. تطلعتا إلى نزار باهتمام وثقة، وهما بحد ذاتهما مدعاة للسعادة والحق يقال. وحتى لو خيب المرء ظن الصبية فستسامحه على إيذائه لها. إنها تريد أن تواصل العيش ولا يمكنها أن تتحمل العذاب النفسي طويلاً. وسألت من جديد:

- يا نزار، لمَ أنتظر أنا شيئاً طول الوقت؟ لماذا يخيل إليّ أن أمراً هاماً سيحدث ولا يحدث؟.. لماذا بدأ قلبي يتألم؟

- أنت تكبرين يا آيديم - قال نزار - لا تخافي مما يخيّل إليك ويؤلم قلبك. فالحياة مستحيلة بدون هذه الآلام.

- مستحيلة. - وافقته الصبية - لكنني لا أريد ذلك. قلب أمك تألم من الجوع، قالت لي بنفسها... فلتحل بنا مصيبة غير تلك، مصيبة ممتعة. مللنا من تلك. ابتدع لنا شيئاً ما...

جذبها نزار وأخذ يلاطفها ممسداً رأسها الذي لا يزال كبيراً كرؤوس الأطفال. فقالت له:

- علّمني أن لا أفكر. وسيكون هذا أفضل. وإلا فأنا خائفة. يخيّل إليّ أن هناك شيئاً فظيعاً!

- روحك بدأت تتألم ليس من الجوع، أليس كذلك؟ - سألها نزار.

- بلى. إنها تتألم من المشاعر... لماذا أنا غريبة يا نزار؟

- على من أنت غريبة، يا آيديم؟

- الشعب عاش معنا، لكنه ارتحل، وستذهب أنت قريباً، فمن سيتذكرني يا ترى؟

- لن أتركك. - وعدها نزار.

- أخبرني، يا نزار، بأهم شيء...

خفضت آيديم فتيل الفانوس كي توفّر الكيروسين، فهي تدرك ضرورة الحرص على كل الحاجيات ما دام هناك شيء أهم من الحياة.

- لا أعرف ما هو الأهم. - قال نزار - لم أفكر به، ما كان لدي وقت... ما دمنا ولدنا أنا وأنت ففينا أيضاً شيء أهم...

ووافقته آيديم:

- شيء قليل ولا بدّ... فينا الكثير مما هو غير مهم.

أعدّت الصبية طعام العشاء. أخرجت رغيفاً من الكيس ودهنته بشحم الضأن وكسرته نصفين قدّمت النصف الأكبر إلى نزار وأبقت لها النصف الأصغر. وراحا يمضغان الطعام بصمت في ضوء الفانوس الخافت. وخيّم على أوست-أورت وعلى الصحراء السكون والظلام والمجهول.

بعد العشاء خرج نزار ليرى ماذا يجري الآن في العالم، وينصت لعله يسمع صوتاً بشرياً في الظلام. . . أين يطوف الآن الشيخ فانكا وقره شورما؟ وهل يعقل أن الملا شيركيزوف يرى النور؟

وخرجت آيديم هي الأخرى من المنزل ونادت نزار:

- تعال ونم، سأطفئ الفانوس.

- أطفئيه. - أجابها نزار - سأشعله فيما بعد.

- كلا، الأفضل أن لا تشعله، وإلا ستبذر الثقاب. نم في الظلام. . .- قالت آيديم، ودخلت المنزل.

جلس نزار على الأرض وتطلّع حواليه. كان الليل الباهت يسري فوقه، ولا أثر للريح. والنجوم تلوح في السماء بين الفينة والفينة، يحجبها ضباب مرتفع خفيف. ولم يبق من الثلج إلا ما يلفع الوهاد البعيدة على صفحة أوست-أورت العالية، فقد كنسته الريح من سائر البقاع وأجهزت عليه شمس الضحى. وعلى الجهة الأخرى، إلى الجنوب، انبسطت البادية - الأم قاحلة تخيّم عليها سماء خالية. ومن حين لآخر تشع الصحراء فجأة بوميض خاطف مجهول، فيخيّل للرائي أن فيها جبالاً ومدناً مأهولة وحياة فوارة جذابة. أما في الواقع فليس هناك سوى السلاحف التي تغط في سباتها وبذور أعشاب الموسم الفائت الباردة والريح الموضعية الخفيفة ترتفع من الرمال وتحط عليها من جديد. هبط شاغاتايف إلى أسفل، قريباً من وادي القصب وصاح في الفراغ الحالك. ولم يتلقَّ جواباً، حتى صدى صوته لم يعد إليه. فقد تاه الصوت واختفى في الحال.

وعاد نزار إلى منزله. كانت آيديم نائمة تحت البطانية وسط أحلام الطفولة، مشغولة بما تراه في نفسها، فلا تسمع شيئاً. أشعل شاغاتايف الفانوس ووضع أرغفة في الحقيبة وارتدى السترة القطنية وقبعة الفرو العالية، ثم رفع طرف البطانية وألقى نظرة على الصبية. كان وجهها منتعشاً متحفزاً. وعيناها تتحركان تحت الجفون المغمضة. فهي تتابع سير الأحداث الخفية في روحها. وهمس نزار:

- آيديم.

فتحت في البداية عيناً، ثم فتحت الأخرى، وقالت:

- نم، يا نزار.

- كلا، لن أنام الآن. - أجابها - أنا ذاهب لأجمع شتات الجان. وسأعود قريباً.

- عد بسرعة إذن. - رجته الصبية.

- لا تستوحشي بدوني.

- طيب. - وعدته وأضافت:- اذهب، عجّل، وإلا ستضعف قواهم. لقد طافوا ولعبوا ما فيه الكفاية، وحان موعد العودة إلى الديار.

مسد نزار رأس آيديم وانصرف. وطلبت منه أن يطفئ الفانوس لأن الليل لا يزال طويلاً، وهي لا تحتاج إلى ضوء.

أطفأ نزار الفانوس وغادر المنزل ماشياً على السفح صوب حيوى. ثم التفت إلى مكان إقامة قومه، لكنه لم ير أحداً. ليس هناك سوى الصبية التي ظلت نائمة لوحدها، غير ملحوظة وسط

العالم كله والطبيعة بأسرها. ولكن لا ضير في ذلك بالنسبة لها. ففي المنازل الأربعة رز ودقيق وملح وكيروسين، وثقاب أيضاً. أما السعادة والصبر فلتبحث عنهما في طيات فؤادها حتى يعود إليها باقي الجان.

سار شاغاتايف بسرعة. وعاجله الفجر في مجاهل وادي القصب. أما جبل أوست-أورت القاتم الذي كان لا يزال في أحضان الليل فقد ابتعد إلى آخر مرتبة في الطريق وغاص أساسه وراء حافة الأرض... وفي اليوم الثالث وصل نزار إلى حيوى. هناك سوق كبير يتردد عليه أبناء البادية ليتفرجوا على المبيعات ويشتروا شيئاً منها لتلبية احتياجاتهم الملحّة ويلتقوا بعضهم ببعض. وكان نزار يأمل أن يصادف في سوق حيوى أبناء قبيلته ويعود بهم إلى الديار. فهم لا بدّ وأن يندسّوا بين حشود الغرباء ليسمعوا الإشاعات والأحاديث ويجلسوا في المقاهي ويشعروا من جديد بكرامتهم ويفكروا بالأغنية القديمة التي سيغنيها المنشد ويعزف ألحانها على الربابة. ففي منازل الطين في أوست-أورت كان هناك القليل من مستلزمات المعيشة العادية التي لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونها في أي مكان.

جاء نزار إلى سوق حيوى قبل الظهر. والشمس التي تقدمت نحو الصيف تسلط أشعتها على أرض السوق الوسخة وتدفئ ترابها. وحول ساحة السوق تنتصب أحواش الأهالي، وقرب حيطانها الطينية جلس الباعة عارضين بضاعتهم المطروحة على الأرض مباشرة. وفي وسط الساحة مصاطب خشبية واطئة عليها بضائع الصحراء. فهناك المشمش المجفف في أكياس صغيرة

وشرائح الشمام المجفف أيضاً وجلود الأغنام الخام والبسط القاتمة التي نسجتها أيدي النساء في وحدتهن الطويلة، وهي تصور مصير الإنسان بشكل نقش متكرر حزين. وهناك صف مخصص بكامله لحزم صغيرة من حطب الغضى، وبعده جلس شيوخ على الأرض يعرضون أمامهم قطعاً نقدية قديمة ومجهولة وأزراراً حديدية ودبابيس معدنية وكلاليب ومسامير عتيقة وحدائد وشارات وقبعات جنود وقحف سلاحف وعضايا محنطة وقرميداً مزخرفاً من القصور الأثرية الدفينة. وحتى هؤلاء الشيوخ ينتظرون أن يأتي المشترون ويقتنوا منهم ما يحتاجون إليه. كانت النسوة يعرضن أرغفة الخبز والجوارب الصوفية وماء الشرب وثوم الموسم الفائت. وعندما تبيع الواحدة منهن شيئاً تشتري بثمنه من الشيوخ دبوساً معدنياً تزين به ثوبها أو كسرة من قرميدة مزخرفة تهديها لطفلها بدلاً من اللعبة. وكان الشيوخ بدورهم عندما يتسلّمون النقود يشترون بها التبغ والأرغفة وماء الشرب. التجارة في السوق تجري على هذا الأساس بالمقايضة بلا أرباح ولا خسائر. والحياة، على أية حال، تجري منسيّة في الزحام وفي مسليات السوق، والشيوخ قانعون. وفي داخل بعض الأحواش الواقعة حول السوق توجد مقاهٍ توشوش فيها سماورات ضخمة ويتجاذب الناس أطراف الحديث في مواضيعهم القديمة الأبدية وكأن ما لديهم من عقل لا يكفي للتوصل إلى رأي نهائي يُستحسن بعده السكوت. دخل شيخ أوزبكي بني اللون أحد المقاهي حاملاً على ظهره صندوقاً مرصعاً بزوايا معدنية. وتذكّر نزار هذا الشيخ، فقد رآه في الطفولة، وكان آنذاك أيضاً عجوزاً بني اللون. يجوب

القرى والمدن حاملاً أدواته ومواده في الصندوق يلحم وينظف السماورات في كل المقاهي. وقد تشرَّب وجه هذا الإنسان الكادح بالسخام والدخان وريح الصحراء أثناء الجولات البعيدة، فغدا بني اللون جاسئاً منطوياً على نفسه. ارتعب نزار الصغير من مصلح السماورات الصحراوي عندما رآه لأول مرة. لكن المصلح الأوزبكي يومها بادر الصبي بالتحية وأهداه مسماراً معقوفاً ومضى إلى جهة مجهولة في وادي القصب، فلربما تعطب سماور في مكان ما على الرمال البعيدة وذهب الرجل ليصلحه.

قرب صندوق القمامة وقفت فتاة تركمانية ومالت إليه حاجبة فمها بمنديلها وهي تنظر بعيداً من فوق رؤوس الناس في السوق. التفت نزار إلى تلك الجهة ورأى سرباً من الغيوم البيضاء في طرف الصحراء على ارتفاع واطئ عن الأرض. لعل تلك هي القمم الثلجية لجبل كوبيت-داغ وجبل باراباميز أو هي تلاعب الأضواء في الهواء أو خيالات عالم بعيد. ففيم تفكر الآن روح هذه الفتاة؟ أفلم يعش قبلها أناس أكبر سناً كان يتوجب عليهم أن يكشفوا كل الأسرارالعسيرة لتولد هذه البنت التركمانية الغريبة لسعادة جاهزة؟ فما نفع البشر الذين عاشوا قبلها إذا كانت هي تقف الآن متحيرة بأفكارها ومهمومة بأحزانها؟ وما أشد تعاسة والديها وأبناء عشيرتها إذا كانوا عاجزين عن مساعدة ابنتهم، فعاشوا عبثاً وماتوا، وها هي تقف وحيدة مثلما وقفت في حينه أمها الشابة البائسة ربما في هذا المكان... وجه الفتاة مليح خجول وكأنها مستحية من قلة الخير في هذا العالم. فلا شيء غير الصحراء والغيوم على طرفها وهذا السوق بعضاياه المحنطة،

بالإضافة إلى قلبها المسكين الذي لم يتعود بعد على الفاقة والصبر.

اقترب نزار من الفتاة التركمانية وسألها من أين هي وما اسمها، فأجابته:

- اسمي هانم.

ويعني عندهم «آنسة» أو «أنيسة».

- تعالي معي. - قال لها نزار.

- كلا. - أجابت هانم باستحياء.

وعندذاك أخذ نزار يدها، فتبعته.

مضى معها إلى المقهى وأكلا معاً طعاماً ساخناً من طاسة واحدة. ثم أخذا يشربان الشاي وأجهزا على ثلاثة أباريق كبيرة منه. وغفت هانم على أرضية المقهى بعد أن أثقل عليها الطعام الوفير. ثم تحسنت حالها وشعرت بالمتعة، وابتسمت مراراً وهي تتطلع إلى الناس حواليها وإلى نزار. ووجدت سلواها في هذا المكان. استأجر نزار من صاحب المقهى غرفة خلفية وذهب إليها مع هانم لتنام وترتاح.

ترك الفتاة في الغرفة وخرج. ظل يجوب مدينة حيوى حتى المساء. تردد على كل الأماكن التي يؤمّها الناس أو يتجولون فيها لمختلف الأغراض. لكنه لم ير في أي مكان وجهاً يعرفه من أبناء الجان. وأخيراً أخذ يسأل الشيوخَ في السوق، والحراسَ الليليين الذين ظهروا قبل حلول الظلام ليحرسوا ممتلكات المدينة، وعامة الناس هل رأى أحد منهم سفيان أو الشيخ فانكا أو عبد الله أو غيره؟ وذكر لهم أوصافهم.

- الناس هنا أشكال. - أجابه أحد الحراس، وهو روسي كهل - وأنا لا أتذكرهم. فهنا آسيا، وهي ليست أرضنا.

- كم سنة تقيم هنا؟ - سأله شاغاتايف.

فكر الشيخ وقال على وجه التقريب:

- حوالى أربعين سنة. بموجب قواعد الخدمة يتعيَّن علينا أن نتذكر كل عابر سبيل، فربما كان نصاباً. لكن الدماغ تعبان. وأنا، يا ابني، أعيش على قوة الغير بعد أن استهلكتُ قواي من زمان...

ولم يتلقَّ نزار أي خبر من باقي أهالي حيوى المسنين ولا من المستخدمين وكأن أحداً من أبناء شعب الجان الجوال لم يأت إلى هذه المدينة. وبموجب السجلات في إدارة الشرطة يعتبر كل الأشخاص المنسوبين إلى قبيلة الجان ميتين منذ ما قبل الثورة، ولم يعد هناك موجب للاهتمام بشعب منقرض.

في المساء عاد نزار إلى الغرفة المستأجرة في المقهى. هانم استيقظت وجلست على السرير وانشغلت برتق ذيل ثوبها بخيط إضافي تبلله من فمها. ولعلها تعتبر كل مكان تتواجد فيه منزلاً لها، فتتعود عليه في الحال. وإلا فلو أجَّلت حاجاتها ومشاغلها حتى تحصل على مأوى لتهرأت ثيابها وتدهورت أمورها بسبب الإهمال ولماتت من قذارة بدنها. جلس نزار جنب هانم واحتضنها بإحدى يديه، فكفّت عن رتق ثوبها وتجمّدت مرتعبة في انتظار نعيم الحياة المرتقبة التي لا اسم لها ولم تولد بعد، لكن بذرتها طلعت في داخل نزار ولامست فؤاده بإحساس حي سعيد.

ففي حناياه الآن شيء أفضل من نفسه وأكثر حيوية وروعة، يدفئه ويمنحه القوة ويبعث فيه الفرحة والسرور. تطلّع إلى هانم، فابتسمت له متأملة وادعة وكأنها تفهمه جيداً وتعطف عليه. وعندذاك عانقها بكلتا يديه وكأنه يرى فيها تجسيداً لكل ما لم يتحقق فيه ولن يتحقق، لكل ما سيبقى بعده بهيئة إنسان آخر أرقى على أرض أكثر طيبة مما كانت عليه الأرض بالنسبة له. وتلاصقا سعيدين. وأسدل الليل القديم ستارة الظلام على منازل حيوى الطينية، وسكنت أصوات رواد المقهى، بعضهم انصرف ليقضي الليل في بيته، وبعضهم ظل فيها لينام. وسد صاحب المقهى مدخنة السماور بسدادها كي يبقى الفحم غير المحترق فيها سليماً حتى صباح الغد. وانهمك شاغاتايف الآن في حب هانم بنهم نابع من الضرورة القصوى، وما كان قلبه ليتعب ولم يتوقف شبقه وتوقه إلى هذه المرأة. وقد أحس بأنه غدا أكثر تحرراً وسعادة وكأن الآمال انتعشت فيه لبلوغ أفضل ما يبتغيه... وعندما يداعب النعاس هانم ويستولي عليها يشتد شوق نزار إليها، فيوقظها ليجدها معه من جديد.

لم ينم نزار ليلته، لكنه نهض في الصباح مرحاً مرتاحاً، بينما ظلت هانم نائمة أمداً طويلاً، وتدلى وجهها المستسلم المليح من الوسادة. مسد نزار شعرها وحفظ في الذاكرة تقاسيم الفم والأنف والجبين، لتنطبع فيها كل روعة هذا الإنسان الذي بات عزيزاً عليه. ومضى إلى المدينة ليبحث عن قومه من جديد.

أشرقت الشمس من جهة الصين، وتطلّع نزار إلى هناك برهة، من خلال الصحاري والسهوب، تطلّع إلى غبش السماء وضبابها

في المشرق، من جهة الصين حيث استيقظ من زمان نصف مليار من الكادحين البؤساء الصابرين. فما أكثر الأفكار والمشاعر في أفئدتهم لو استطاع أن يتحسسها دفعة واحدة في فؤاده وحده!

ظهر مصلح السماورات الأوزبكي العجوز في باحة السوق. خرج من مبنى كان يُستخدم في السابق خاناً لقوافل الإبل. ولعله بات ليلة البارحة هناك، وها هو الآن متوجّه للعمل.

انحنى نزار للمصلح محيياً وسأله عما إذا كان قد رأى أحداً من قبيلة الجان. تطلع الشيخ الأوزبكي إلى شاغاتايف بعينين غائرتين تنمّان عن ذاكرة جيدة. فقد تذكّر، على ما يبدو، الطفل نزار الذي أهداه مسماراً معقوفاً في زمن ما. فمصلح السماورات لا يمكن أن ينسى شيئاً أو حدثاً أثّر في نفسه ذات مرة. ثم إن الحياة قصيرة وليس بالإمكان نسيان كل شيء. وقال الأوزبكي بصوت خافت:

- رأيت واحداً منهم في أوش-آجي. كان يرقص في المقهى على موسيقى الهارمونيكا الروسية.

- هل هو الشيخ فانكا؟ - سأل نزار.

- نعم. - قال الأوزبكي.

- هل أنت ذاهب بعيداً الآن؟ - سأله نزار.

تباطأ المصلح في الجواب. فهو لا يحب الكلام عن نواياه التي لم تتحقق بعد. ثم قال:

- نعم، أنا ذاهب إلى شارجوي. سأتعلم الميكانيك هناك. وصلتْ إليهم حفارات لحفر الترع. وأنا لن أصلح السماورات بعد الآن...

- كم عمرك؟ - استفسر منه نزار - هل يكفيك الوقت حتى تصبح ميكانيكياً؟

- يكفيني. - وعده الشيخ - أنا في الرابعة والسبعين. عشتها في حياة التعاسة، فكم سأعيش يا ترى في حياة السعادة؟

- مئة وخمسين؟ - سأله نزار.

- ربما! - أجاب العجوز.

وودّعا بعضهما بعضاً. عاد شاغاتايف إلى المقهى واتفق مع صاحبها على أن يطعم هانم ويترك الغرفة تحت تصرفها لحين عودته بعد عشرة أو خمسة عشر يوماً. إلا أن صاحب المقهى اشترط أن يدفع نزار مقدماً ثمن الطعام، فهو بحاجة الآن إلى المال لأغراض تجارية. وقال نزار إنه سيدفع المبلغ المطلوب ومضى إلى سوق حيوى من جديد.

وحتى الظهيرة تمكن أن يبيع سترته القطنية، فالصيف قادم على أية حال. ترك لنفسه قليلاً من النقود ودفع الباقي إلى صاحب المقهى ثمناً لطعام هانم.

أيقظ نزار الفتاة وطلب منها أن تبقى هنا حتى يعود. ابتسمت له بمحيّاها الدافئ وقد سخنه النوم، ورجته أن يقضي معها بعض الوقت ففعل، ثم تركها وحيدة في غرفة الطوف وغادر المدينة. مضى في البداية إلى واحة حيوى، ومن هناك يتوجّه إلى جهة لم يكن قد تأكد منها حتى تلك اللحظة...

18

بعد ثلاثة أيام ترك شاغاتايف آخر نجع في واحة حيوى. وإنبسطت أمامه من جديد الصحراء المعتادة، وأشواك إبراهيم تتدحرج في الريح عبر الكثبان الرملية، والطريق القديم يمتد صوب الآبار البعيدة...

أسرع نزار راكضاً على الطريق الخالي وفي نيّته أن يبلغ الواحة التالية قبل حلول المساء، لعله يجد هناك شخصاً ممن يبحث عنهم. فإلى أين ذهبوا يا ترى؟ عقولهم لا تزال ضعيفة كئيبة، وسيهلكون في البؤس والاغتراب، على الرمال وفي القرى الغريبة... لا يمكن لأي شعب، حتى الجان، أن يعيش مشتتاً، فالبشر يتغذّون بعضهم من بعض وليس بالخبز وحده، بل بالروح أيضاً، يتحسس الواحد منهم الآخر ويتصوره، وإلا ففيم يفكرون؟ وعلام ينفقون طاقة الحياة الرقيقة الساذجة وأين يبعثرون أحزانهم ويجدون سلواهم؟ وأين يموتون بهدوء؟.. الإنسان، أي إنسان، عندما يتغذى على تصورات ذاته سرعان ما يلتهم روحه ويستنزف قواه في أسوأ بؤس ويهلك في كآبة الجنون.

ولو لم يكن نزار شاغاتايف يتصور الحياة ويحس بها قوة طيبة

نيّرة تسهر عليه كما تسهر الأم على ابنها لما استطاع أن يفهم مغزى وجوده، ولما تمكن أن يعيش عموماً بدون الشعور بطيبة الثورة التي حمته في الطفولة من التشرد ومن الموت جوعاً، وهي تساعده الآن في الحفاظ على كرامته وإنسانيته. ولو نسي نزار أو فقد هذا الشعور لتحيّر وخارت قواه وانكفأ على الأرض وتحجّر...

ربضت نعجتان متوحشتان على سفح كثيب غير بعيد عن الطريق. نعجتان عجفاوان منظرهما كمنظر الكلاب. تجاوزهما نزار، لكنهما تبعتاه ربما بسبب الجوع أو العطش مؤملتين في النجاة بحضور الإنسان، أو ربما بسبب الوحدة الطويلة واليأس الشديد. إلا أن النعجتين سرعان ما تعبتا وتخلّفتا يتيمتين ضائعتين من جديد في خلاء الطبيعة المقفرة.

قبيل المساء وصل نزار إلى نجع صغير يقع قرب ثلاث آبار ويقطنه بعض أبناء قبيلة أرساري الذين يمارسون صيد السمك في المجرى القديم لنهر أموداريا عندما تبلغه مياه الفيضان حاملة الأسماك معها. وفي باقي الأوقات يعتاش أهالي النجع على صنع الربابات للمنشدين، ويبيعونها في البادية القريبة وفي شارجوي. كان نزار قد سمع بنجع الربابات ورآه في طفولته. ففيه يقيم أناس طيبون يصنعون الآلات الموسيقية وغالباً ما ينشدون الأغاني الشاعرية الحزينة أو المضحكة ليجرّبوا آلاتهم.

دخل نزار أول حوش يصادفه وطرق باب البيت، لكن دفّته انفتحت إلى الداخل من طرقته. وعلى أرض الحجرة كان أربعة أشخاص جالسين في شبه ظلام. أحدهم يعزف برفق على وترَي

الربابة ويرتّل بصوت مبحوح كلمات أغنية قديمة، والباقون يستمعون. توقف نزار عند العتبة كيلا يشوش على الأنغام وانتظر حتى تنتهي الأغنية. ويبدو أنها مسّت شغاف قلوب الحاضرين، فكانوا صامتين لا يلتفتون إلى الضيف الغريب. تقول الأغنية إن لكل إنسان أحلامه البائسة ومشاعره الضئيلة المحببة إليه والتي تعزله عن غيره. ولذا فحياته تغلق عينيه على العالم وعلى الآخرين، فلا يرى روعة الزهور وهي تتفتّح في الربيع على الرمال. . .

وعندما انتهت الأغنية دعا صاحب البيت العجوز نزار للجلوس قربه كي يرتاح. وكان هو الذي يعزف على الربابة وجنبه شابان لعلهما من أبنائه. والثالث هو الشيخ سفيان ذاته. سلَّم صاحب البيت الربابة إلى سفيان، فتفحّصها الشيخ جيداً وقال:

- أريد أن أعزف. وقد نظمت الأغاني بنفسي. قلبي طيب، لكنني لا أملك ثمن الربابة. لست غنياً، فأنا أعيش على بدني وحده. . .

كان سفيان في نفس معطفه العسكري البالي الذي لم يبق فيه موضع سليم، حتى غدا عليه كالمنخل.

وطلب صاحب البيت، صانع الربابة، من أحد ولديه أن يعدّ الرز والسمك لإطعام الضيفين القديم والجديد، ثم التفت إلى سفيان وقال:

- هذه ربابة ممتازة، لكنها ليست للبيع. . . أنت شيخ بلغت من العمر عتياً ولم توفر لنفسك ربابة واحدة، ما يعني أنك عشت

طيب القلب حقاً، فأرجوك أن تأخذ هذه الربابة مجاناً حتى ترتاح نفسي.

وضع سفيان الربابة على ركبتيه وراح يحدق فيها مندهشاً، فهي أول حاجة ثمينة يمتلكها في حياته.

بعد العشاء عزف سفيان على الربابة قليلاً وأنشد أغنية عن السمكة الذكية القوية التي تسبح في أعماق الأرض المظلمة.

وسأله نزار بعد ذلك عن قبيلتهم الجان، أين هي؟ فأجاب سفيان:

- تفرق القوم ليعيشوا يا نزار. في السابق لم يكونوا يقوون على المشي، لكنك أطعمتهم فساروا.

- وما حاجتهم إلى السير؟ - سأل نزار متعجباً - سيبددون قواهم من جديد.

- فيه حاجة. - أجاب سفيان - وعندما تنتفي الحاجة سيتوقفون ويعودون إلى أوست-أورت.

- إلى أين ذهبوا جميعاً؟

- لم أسألهم. - قال سفيان - فليفكر كل منهم بنفسه. نم يا نزار. الوقت يمضي، ولا داعي للعيش ليلاً. أنا أحب النور، ولم يبق لي وقت كثير لأراه...

في فجر اليوم التالي أخذ سفيان الربابة وودّع صاحب البيت، ثم قال لنزار:

- تعال معي. سأصبح منشداً أجوب القرى والأرياف حتى

تحين ساعتي. إذا جئت معي فسترى كل الناس، وتساعدني في الإنشاد وتأكل مما يجودون به علينا...

- أستطيع أن أنظم لك أغاني جديدة لم يعزفها المنشدون الآخرون. - قال نزار.

- اقرأها لي في الطريق. - رجاه سفيان.

أعطاهما صاحب البيت رغيفاً، ومضيا على طريق شارجوي.

19

ظل نزار وسفيان يجوبان القرى وأطراف المدن وبيوت الشعر حتى بداية الخريف. الشيخ يعزف للناس على الربابة ويغني، بينما يساعده نزار في بعض الأحيان. وكانا يأكلان ويعيشان في طريقهما الطويل. جابا كل الواحات من شارجوي حتى عشق- آباد، عرجا على بيرم علي ومرو وأوش- آجي، وتوغّلا إلى الآبار والسبخات في مواضع البدو الرحل، وأخيراً غادرا عشق-آباد متوجهَين إلى درواز.

لم يصادف نزار أحداً من أبناء شعبه في أي مكان. وأثقل على فؤاده التجوال والآمال الخائبة والكآبة والحنين إلى كسينيا وآيديم وهانم. كان كثيراً ما يسأل من سفيان، بوصفه إنساناً مجرباً ذكياً، عما يمكن أن يحدث لكل أبناء الجان وما سبب غيبتهم. ويجيبه سفيان أن شخصاً أو شخصين يمكن أن يموتا، أما الباقون فسيظلون سالمين، ذلك لأن الحياة بالنسبة لشعب مثل الجان يسيرة وممتعة طالما أنه تحمّل نزعات الموت لأمد طويل. وأضاف الشيخ:

- سيبتدع لنفسه حياة تناسبه ولن يستطيع أحد أن ينتزع منه السعادة. . .

قضى سفيان ونزار في درواز ثلاثة أيام افترقا بعدها. فقد صمّم الشيخ على اجتياز البادية إلى حسن قلي الواقعة على نهر أتريك، بينما أراد شاغاتايف أن يعود إلى حيوى بطريق الواحة ويذهب من هناك إلى الديار في أوست-أورت عبر وادي القصب. كان يخشى على آيديم، ولا يدري ماذا حل بهانم التي هي، على ما يبدو، فتاة تعيسة لا أحد عندها. جمع سفيان ونزار في البلدة والقرى القريبة أرغفة الخبز ثمناً لموسيقاهما، وافترقا ذات صباح في جهتين مختلفتين، ربما إلى الأبد هذه المرة.

الحر شديد. لكن نزار متعود على الصحراء وعلى الصبر، فسار من بئر إلى بئر، وهو يصادف عادة بضع خيام، فالصحراء لا تخلو من البشر، وهم يعيشون فيها دائماً وأبداً. كان نزار يقضي الليل في إحدى الخيام ويتناول العشاء دوماً لدى عائلة من البدو الطيبين وكأنه بين أهله. وهو يحمل في عبّه الأرغفة التي أخذها من درواز ويأكل نتفاً صغيرة منها أحياناً أثناء المسير عندما يلمّ به التعب كيلا يشعر به.

وفي اليوم الخامس رأى نزار برج حيوى فركض حتى يبلغ السوق قبل حلول الظلام وقبل أن ينام صاحب المقهى ويغلق بابها. ها هو يرى باب المقهى مفتوحاً والضوء ينير داخلها، وقد خرج شخص ما إلى الساحة. سار نزار بخطى هادئة وانحنى محيياً الزبائن وصاحب المقهى. ثم سأل هذا الأخير بلامبالاة عن أحوال هانم.

عرف صاحب المقهى نزار وأجابه:

- اشتد حنينها إليك.

- لقد جئت الآن. - قال نزار.

- تركتنا من زمان - أخبره الرجل - ذهبت لتبحث عنك...

- إلى أين ذهبت؟

- لم تخبرنا بشيء. انتحبت، ثم صمتت.

أخرج نزار من عبّه بقية الرغيف الأخير وراح يمضغها قبل أن تبلغ المصيبة قلبه، فعندذاك لن يستطيع أن يأكل شيئاً.

- كم أنا مدين لك مقابل إطعام هانم؟ - سأل نزار صاحب المقهى.

- لا داعي للنقود - قال الرجل - كانت تغسل الصحون وتكنس المقهى، كانت تشتغل...

خرج شاغاتايف من المقهى إلى سوق حيوى الخالي المظلم. وبدد الحزنُ على هانم المسكينة المفقودة كل ما ألمّ به من تعب، وغدا بدنه في الحال قوياً ساخناً ليصارع أحزانه. اجتاز الساحة على عجل، ثم ركض، وسرعان ما وجد نفسه خارج حيوى. ولو توقف لما استطاع أن يتجاوز يأسه، فقد كان سيبكي في هذه الحال أو يموت.

سار نزار الليل كله بلا طعام ولا راحة، مسرعاً إلى وادي القصب، إلى أوست-أورت، يريد أن يرى آيديم بأسرع ما يمكن، ليهدأ قربها وينشغل برعايتها وبالشؤون المنزلية والحياة المعتادة... وفي حر الظهيرة ألمَّ به تعب شديد، فوجد شقاً في تلة ترابية يخيّم عليه ظل ثابت كثيف. طرد العضايا الغافية هناك ونام حتى المساء... وفي الليل بلغ حدود منخفض وادي

القصب. ولأول مرة منذ مغادرته حيوى شرب ماءً عكراً مالحاً بعض الشيء من البحيرة الصغيرة الضحلة هناك. ومن جديد نام في سكون حفرة ندية ليتخلص من حر النهار، ثم واصل سيره منذ بداية المساء حتى بلغ أوست-أورت في صباح اليوم التالي. ارتقى المرتفعات على عجل ليرى منازل قومه الطينية بأسرع ما يمكن...

ركض نزار نحيلاً قلقاً، وارتقى آخر مرتفع، ثم توقف فرحاً متحيراً. الشمس المضيئة الصافية التي لم تتسخن بعد على هذا المرتفع تنير أرض أوست-أورت الخالية الوادعة. ولاحت المنازل الأربعة مبيضة الجدران. ومن مدخنة المطبخ يتعالى دخان شبعان يفوح برائحة الطعام في جو بلا ريح. وعلى سفح الجبل بعيداً يرعى قطيع من الأغنام فيه ما لا يقل عن مئة رأس. وعلى الجانب الآخر من المنخفض الواسع، على مسافة من المنازل، ربض جملان عجوزان يقضمان مختلف أنواع الزبل حولهما ليطردا الملل ولا يُتعبا ذهنهما بالتفكير عبثاً... وتوجّه نزار قلقاً ضيّق الصدر إلى المنزل الذي فيه المدخنة، لكن آيديم خرجت من منزل آخر في الطرف وبيدها دلو خال. في البداية ألقت بالدلو على الأرض، لكنها انتبهت على نفسها ورفعته وهرعت إلى نزار بقدمين حافيتين. اكتسى وجهها فجأة بمسحة من الرعب والحزن وألقت برأسها على بطن نزار وسقط الدلو من يدها. كانت تخشى أن يتركها من جديد ولن يعود أبداً. فقد أحسّت بذلك مسبقاً في حدس جاء قبل الأوان. حمل نزار الصبية وذهب بها إلى البحيرة، لأنه نسي أن يغتسل. وضعت آيديم رأسها على كتفه

وراحت تحدّثه، في أذنه، كيف عاشت هنا وحيدة لأمد طويل، ثم جاء تاغان مع قره شورما يقودان من البادية أربعين نعجة وأربعة خراف. لم تكن تلك الأغنام ملكاً لأحد. كانت تسير في أثر جمل، ربما ضاع صاحبه ولا يدري إلى أين يتوجه. وعندما رأى الجمل قره شورما في الصحراء جاء إليه بنفسه وربض قربه، وربضت الأغنام حول قره شورما أيضاً. وقالت آيديم:

- الأغنام لا تدري من أين تشرب الماء. كانت تجد أعشاباً، لكنها لا تجيد استخراج الماء. أما المياه على سطح الأرض فلا تصادف إلا نادراً...

- والجمل الثاني من أين؟ - سأل نزار.

- الجمل الثاني عثرت عليه بنفسي. - أجابت آيديم - ذهبت إلى الصحراء أبحث عنك، تصورتك قريباً... وهناك بئر على حافتها جذع شجرة غضى. وكان الجمل راقداً ورقبته على الجذع وعيناه تحدقان في ماء البئر ولعابه يسيل ويقطر فيها. كان ضعيفاً يكاد يموت. عدت إلى المنزل وأحضرت دلواً بحبل وسقيته...

قبّل نزار الصبية في خدها، فابتسمت له وأشاحت بوجهها في أول استحياء أنثوي. وضعها نزار على الأرض لأن البحيرة التي يقصدانها باتت قريبة.

- سأذهب لأعدّ لك طعام الغداء، فقد تعبتَ وجعت طبعاً. - قالت آيديم وعادت راكضة.

لم يفهم نزار بعد ما الذي حدث هنا في غيابه. اغتسل في البحيرة ونظف ثيابه وعدّلها وذهب إلى البيت في القرية الجديدة.

إلا أن الشمس السائرة نحو الظهيرة والحر الخانق الذي اكتنف السفوح أرهقاه، لاسيما وهو متعب من زمان. رقد في الظل على فسحة صغيرة واستولى عليه النعاس وغرقت عظامه المجهدة في بحر النسيان.

استيقظ مساءً والهلال النحيل يضيء فوق الصحراء، والقوم جالسون حوله بصمت. لم يستطع أن يتذكر في الحال أين هو ومن هو، فأغمض عينيه ثانية ليتذكر. وحطت يد كبيرة دافئة على وجهه وسمع الصوت الساذج المعروف يناديه. فقال:

- هانم! - وشعر بالارتياح والاستقرار، فيد المرأة رقيقة بسيطة. ولم يفكر نزار فيما إذا كان ذلك حلماً أم واقعاً. فهو يفكر الآن في هانم وحدها.

- نزار - قالت هانم ورفعت يدها عن وجهه.

شاهد نزار وجه هانم الباسم. كانت جالسة على الأرض قرب رأسه، وها هي تلمس شعره بحذر. وقبالة هانم، قرب قدميه، جلس تاغان والشيخ فانكا والملا شيركيزوف وعبد اللّه وقره شورما. راحوا يحدقون في وجه نزار. كانوا جميعاً أحياء سالمين. لم يصدق نزار عينيه، فرفع مقدمة بدنه ومدّ لهم يده ولمس كلاً منهم على انفراد. ووراءهم جلس أشخاص لا يعرفهم. كانوا خمسة رجال وأربع نساء وصبية بعمر آيديم.

- مرحباً نزار - حيّاه الملا شيركيزوف.

- أنت تراني؟ - سأله نزار.

- قليلاً. - أجاب شيركيزوف - أنا من زمان أتعود على

البصر، في السابق لم يكن عندنا طعام والروح كانت تتألم، فمن أين يأتي البصر؟ أما الآن فهي تمسح عينيّ وتقبّلهما، وها هما تريان النور كالضباب.

- من التي تقبّل عينيك؟ - سأل نزار.

- زوجتي هانم. - أجاب الملا - أخذتها معي من نوكوس. جاءت إلى هناك من حيوى وكانت تعيش وحيدة في السوق. . . نم يا نزار، لم تسمح لنا آيديم بإيقاظك.

- استيقظت على أية حال. - قال نزار وجلس على الأرض بين الجميع وأدرك أن كل شيء عندهم على ما يرام.

وسرعان ما جاءت آيديم راكضة من جهة منازل الطين. فقد علمت أن نزار إستيقظ. ودعت القوم أن يذهبوا لتناول الرز المحمّر الذي أعدّته ليأكل منه نزار.

أخذت هانم يد الملا شيركيزوف وسارت في أثر نزار الذي أخذت يده آيديم. ورأى نزار قرب المنازل قطيع الأغنام رابضاً لقضاء الليل وعدده يتجاوز المئة رأس. وفي أحد الأحواش ثلاثة حمير بالإضافة إلى الجملين. فمن أين للقبيلة الصغيرة بكل تلك الخيرات؟ كل ما كان هنا قبل ذهابه ثلاث نعاج وخروف واحد على ما يتذكر.

تفقّد الفتى المنازل الأربعة. داخلها نظيف وحيطانها مطلية بالبياض، وفي إحدى الحجرات احتياطي من الصوف وبساطان غير كبيرين حيكا هنا بأيدي النساء اللواتي جئن للعيش مع الجان.

أعدّت آيديم عشاءً بهيجاً للجميع. وعلى أرضية المنزل حصر مغسولة، وفي الأباريق الخزفية أعشاب طرية من وديان أوست-

أورت الجبلية البعيدة، وفي أطباق خزفية كبيرة كميات وفيرة من الرز المحمّر تكفي لإطعام القوم. جلس حول تلك الأطباق خمسة كهول تركمانيين في سن الشيخوخة تقريباً لا يعرفهم نزار وسبع نساء، بالإضافة إلى الأشخاص الذين أحاطوا به عندما كان نائماً. انحنى لقبيلته كلها ولكل الأقارب الجدد الذين جاؤوا إلى هنا ليعيشوا معاً. طلبت منه آيديم أن يجرب طبخة الرز قبل الآخرين، وبعد ذلك أخذ الكل يتناولون الطعام على مهل مقدّرين قيمته وأهميته...

جلس القوم يتجاذبون أطراف الحديث طول الليل مرتاحين للمودّة واللقاء. والفانوس ينير وسط الأرضية مطوقاً بالحاضرين. ومن حين لآخر يخرج أحدهم ليتفقّد الأغنام والحمير والجملين ويعود. وغفت الصبية الجديدة قرب أمها، كما غفت آيديم ورأسها على ركبتي نزار. وكان النعاس يراود هانم السعيدة، لكنها تخجل من رغبتها في النوم بحضور نزار. والصمت يخيّم على أوست-أورت. والهلال النحيل هبط من زمان وراء الصحراء وأوت كل الحيوانات المتوحشة إلى الرمال والجبال. لا شيء غير الحمير تنهق من حين لآخر في الحوش.

وسأل نزار قره شورما والملا شيركيزوف:

- لماذا تركتمونا في الشتاء؟

عبسا متحيّرين مرتبكين، فأجاب الشيخ فانكا بدلاً عنهما:

- ظننا أن الدنيا خالية من زمان... وتصورنا أننا بقينا لوحدنا فيها، فما الداعي لأن نعيش إذن؟

وقال عبد اللّه:

- ذهبنا لنتأكد. دفعنا الفضول لنعرف هل هناك ناس آخرون غيرنا.

فهمهم شاغاتايف وسألهم هل أيقنوا بالحياة ولن يموتوا بعد الآن؟ فأجاب شيركيزوف:

- لا داعي للموت. قد يصادف أن يكون لموت الإنسان مرة واحدة نفع وضرورة. لكنه لن يفهم سعادته للمرة الأولى، ولن يكفيه الوقت ليموت مرة ثانية حتى يفهمها. فلا متعة في ذلك إذن. . .

- ومن أين لكم الأغنام والحمير؟ من أين أخذتم هذه الخيرات الوفيرة؟ - سأل نزار.

- الأغنام كسبناها - أفاد تاغان، ثم تحدث كل واحد منهم عما جرى له.

فبعد أن اقتنعوا بواقعية العالم وروعته وعاشروا النساء وتناولوا مختلف أنواع الأطعمة توجّه تاغان وعبد اللّه وسائر أفراد الجان للعمل حيثما وجدوا نفعاً. الشيخ فانكا يتسلّم نقوداً مقابل رقصاته الجيدة في الحانات والمقاهي والأسواق وفي حفلات الزفاف الروسية، ويكسّر عبد اللّه الأحجار لرصف طريق السيارات فيما وراء شارجوي، والملا شيركيزوف ينظف الأصواف في نوكوس. كانوا يأكلون قليلاً، فقد تعوّدوا على ذلك في حياتهم السابقة، وكانو يتصورون فقراء المدن تجاراً، ثيابهم تكاد تكون سليمة. وتجمعت لديهم نقود اشتروا بها مقتنيات

متنوعة، بعضهم اشترى أغناماً وبعضهم حميراً، والبعض الثالث أغناماً وحميراً، ومنهم من تزوج، ثم عادوا إلى منازلهم الأربعة في أوست-أورت بعد أن اتضح لهم أن الحياة ممكنة، وقريتهم الجديدة تنتصب بعيداً خالية غير مأهولة، لكنها مأواهم وملكهم العزيز عليهم. . . في الصحراء، قرب السباخ وفي مجاري الأنهار الجافة المنسية وفي الوهاد الندية، لا تزال تعيش بقايا حائرة من القبائل والأفخاذ المنقرضة. وعندما اقتاد أبناء الجان الأغنام والحمير إلى قريتهم ممسكين بأيدي زوجاتهم صادفوا أولئك الناس المجهولين. وأحضر عبد اللّه ستة أشخاص منهم دفعة واحدة، ولم يأخذ تاغان والشيخ فانكا أحداً من هؤلاء الناس المنسيين، لكنهم تبعوهما لينجوا بأنفسهم ويواصلوا الحياة.

- وها هم يعيشون معنا الآن على قدم المساواة. - أومأ الشيخ فانكا إلى الغرباء - فليبقوا، لن نصبح أكثر فقراً بسببهم. . .

- كلا. ستصبحون أغنياء. - قال نزار.

- سندبر أمورنا ونغتني. - وافقه الشيخ فانكا - عشنا حتى عندما كنا كالأموات، وليس صعباً علينا أن نعيش بخير كالأحياء.

- بل وليس في ذلك متعة أكثر من اللازم. - قال عبد الله.

- كل المتعة أن نعيش الآن بخير. - أجابه نزار - المصائب والأحزان ستأتينا أيضاً، فلتكن إذن بشكل آخر، وليس بائسة كما كانت. مصائبنا كانت شبيهة بمصائب العضايا أو السلاحف.

- صحيح! - قالت هانم فجأة بعد أن كانت تغفو بصمت.

- من أي قبيلة أنتَ؟ - سأل نزار شيخاً تركمانياً مظهره يدل على أنه أكبر الجميع سناً.

- نحن من الجان - أجابه العجوز واتضح من كلامه أن كل القبائل والأفخاذ الصغيرة، وحتى مجرد الجماعات المقيمة في الأماكن الصحراوية الخالية وفي أموداريا وأوست-أورت وهي في سبيل الانقراض، تسمّي نفسها باسم واحد هو الجان. وتلك كنية مشتركة أطلقها عليهم في حينه البايات الأثرياء، لأن كلمة الجان تعني الروح، وليس لدى الفقراء الخاوين كالأشباح سوى الروح، أي القدرة على الإحساس وتحمُّل العذاب، وبالتالي تجسّد كلمة «الجان» سخرية الأغنياء بالفقراء. فالبايات كانوا يظنون أن الروح هي اليأس وحده، لكنهم أنفسهم هلكوا بسببها، لأن لديهم قليلاً منها، قليلاً من القدرة على الإحساس وتحمُّل العذاب والتفكير والكفاح، فالروح هي ثروة الفقراء...

غفا القوم، وانفرج فم هانم في نوم لذيذ ومال رأسها على زوجها الملا شيركيزوف. ورقد نزار بحذر في المكان نفسه الذي كان جالساً فيه كيلا يوقظ آيديم النائمة ورأسها في حضنه، ثم أغمض عينيه في هدوء السعادة والكرى.

20

ظل نزار شاغاتايف بين أبناء قومه في أوست-أورت إلى نهاية الصيف. وحتى ذلك الحين ظهرت في القرية ثلاثة منازل جديدة من الطين وتلقحت أربع نساء من أزواجهن وحملن. وفي نوفمبر عاد الشيخ فانكا وقره شورما من حيوى. فقد بعثهما نزار إلى هناك مع قطيع من ثلاثين رأساً ليسلّما الصوف واللحم إلى الدولة ويشتريا بالنقود التي يتسلّمانها دقيقاً ورزاً وملحاً وكيروسيناً وسواها، بالإضافة إلى ثياب جديدة، لتوفير احتياطي يكفي لموسم الشتاء حتى الصيف القادم، حيث يكبر جيل جديد من الأغنام في القطيع.

وفي أواخر نوفمبر ودّع نزار قومه ونصحهم بأن يختاروا هانم بمثابة العمدة بدلاً عنه، مع أنها حامل من الملا شيركيزوف منذ خمسة شهور. فربما سيعود نزار من موسكو إلى أوست-أورت عندما يحين موعد الولادة. فكر القوم قليلاً ووافقوا على الاقتراح. فالمرأة غالباً ما تكون أفضل من الرجل، والأم أعزّ وأحبّ من الأب.

أخذ نزار الصبية آيديم معه. فقد تعهّد بتعليمها في موسكو. وعندما تصبح متعلمة ستعود بنفسها إلى أوست-أورت وتُعلّم كل من تجده هناك كيف يواصل العيش بالشكل الصحيح...

ذات صباح أخذ نزار وآيديم قليلاً من المؤونة وهبطا من مرتفع أوست-أورت. وخرج الجان كلهم لتوديعهما.

وعندما نزلا إلى منخفض وادي القصب التفت نزار ورأى القوم لا يزالون واقفين على المرتفع يشيعانهما بنظراتهم. وقال:

- انظري يا آيديم إلى كل من بقي هناك وودّعيهم!

- سأعود على أية حال في وقت ما، وسأراهم. - أجابت آيديم ولم تلتفت إلى الناس الذين ظلوا بعيدين وبدوا صغاراً.

تبعتهما النعاج الثلاث والخروف عفوياً حتى الظهر، ثم تخلّفت وضاعت في الأصقاع الخالية.

قطع نزار وآيديم المسافة من حيوى إلى شارجوي في شاحنة، واستقلا القطار إلى طشقند. أمضى الفتى في طشقند يومين لكي يبلغ المسؤولين بنشاطاته. وتلقّى من اللجنة المركزية للحزب شكراً وتقديراً لعمله في سبيل إنقاذ القبيلة المتجولة من الهلاك في دلتا أموداريا. وقال له المسؤولون إن هؤلاء الناس سيشقّون طريقهم الكبير بأنفسهم ولن يبقوا في المنخفض الصغير في أوست-أورت. فللسعادة دوماً أبعاد كبيرة، وهي تضاهي الاشتراكية كلها.

نزلت آيديم مع نزار في خان قرب محطة القطار وما كانت تخرج إلى الشارع بدونه لشدة خوفها. وفي اليوم التالي أخذ نزار يدها وتوجّها لركوب القطار الذاهب إلى موسكو. وفي المحطة أرسل نزار برقية إلى كسينيا دون أن يعرف هل تتذكره الآن أم لا. وتطلعت آيديم إلى نزار مندهشة. فقد حلق لحيته وشاربيه ولم يعد

يشبه ذاك الذي كان يمشي معها في الصحراء ويجوب الجبال ويخوض المستنقعات. لمست بدلته الجديدة التي اقتناها في طشقند وفكرت بأنه غني جداً. وقد اشترى لها هي أيضاً ثياباً أوزبكية جديدة، وجعلها تغيّر كل ملابسها في عربة القطار. وخبأ رداءها البالي في جيبه لسبب ما.

صرف نزار الليلة الأولى كلها تقريباً في ممر العربة ينظر من نافذتها إلى الصحراء والسهوب ويلاحظ النيران في مواقد الرعاة النادرة البعيدة. وكانت آيديم نائمة على الرف، ونزار يعدل البطانية عليها أحياناً ويصفّ يديها ورجليها من جديد عندما تنشرها على طريقة الأطفال، ويمسد شعرها عندما تتمتم في المنام لتهضم بصعوبة انطباعات النهار.

في محطة القطار بموسكو استقبلت كسينيا نزار. لقد كبرت وتغيّرت عما كانت عليه أثناء فراقهما، وصارت كالمرأة الحقيقية. كانت ترتدي معطفاً بياقة رمادية عريضة وقبعة سوداء، فالوقت في موسكو شتاء. اغرورقت عيناها الملونتان بالدموع عندما رأت نزار بين حشد من الركاب. ركضت نحوه وعانقته فتوقفت حركة السير وراءهما. ولم تلاحظ كسينيا رأساً أن صبية في فستان مشجر طويل مما يرتديه ذلك الشعب البعيد تقف قرب نزار وتمسك بطرف سترته. كانا كلاهما بلا معطفين. ولذا فتحت كسينيا معطفها بعد أن تعرفت على آيديم ورفعتها بيديها واحتضنتها ملصقة بدن الصبية بصدرها. كسينيا أطول من آيديم بكثير، ومع ذلك احتقن وجهها من شدة التوتر. وفي ساحة المحطة استأجرت كسينيا سيارة تاكسي لأن البرد اشتد بنزار والصبية.

- إلى أين سنذهب؟ - سأل نزار من كسينيا، فليس لديه جهة يذهب إليها في موسكو.

- إلى منزل أمي. - أجابت كسينيا - فقد هيأتُ غرفتها لكما.

ركبت كسينيا السيارة محتقنة الوجه من الحياء أو من الفتوة التي تتصور الحياة معيبة بسبب الملذات.

ثم توقفت السيارة، وسلمت كسينيا المفتاح لنزار ودعته لزيارتها غداً، وأضافت:

- لكنّ عنواني تغيّر. أنا الآن أعيش لوحدي. برقيتك تسلّمتها جدتي وبعثتها إليّ...

وكتبت له العنوان على قصاصة ورق مستلّة من دفتر، وودّعتهما.

دخل نزار المنزل الذي يعرفه، وأمسكت آيديم بيده. ولم تكن لديهما أمتعة.

في الغرفة الكبيرة المؤثثة بأثاث فيرا البسيط جلس نزار على السرير دون أن يخلع سترته، ثم وضع رأسه على البطانية. كان عبق فيرا الأبدي لا يزال محفوظاً في فراشها. تنشّق نزار هذا العبق وراح يفكر، حتى استولى عليه النعاس. وصعدت آيديم على رف النافذة وأخذت تتطلع من هناك إلى موسكو الهائلة.

وفي صباح اليوم التالي ذهب نزار مع آيديم إلى الحوانيت واشترى لها بلوزات وتنورات أوروبية الطراز ومعطفين لها وله. وتغيّرت آيديم حالاً في اللباس الجديد. ورأى نزار أنها في منتهى الجمال.

بحلول المساء ذهبا إلى كسينيا. كان الطريق طويلاً إلى حارة زاموسكفوريتشيه. استقلا الترام وبعده سارا كثيراً حتى بلغا أخيراً، بموجب العنوان المكتوب، دار طلبة معهد الفحم النباتي. يبدو أن كسينيا تدرس في هذا المعهد الآن. ولها في دار الطلبة، مثل الكثير من البنات، غرفة منفردة. طرق نزار الباب. ولما كانت الجدران الفاصلة بين الغرف وجدران الرواق نفسه خفيفة جداً فقد قالت ثلاثة أصوات، من بينها صوت كسينيا: «ادخل».

فتحت الباب وتورّد محيّاها في الحال، واكتسى بمسحة من الانفعال والارتباك. على الطاولة طعام متواضع أعدّ سلفاً ومغطى بفوطة. أجلست كسينيا الضيفين ورفعت الفوطة عن الطعام وأخذت تلحّ عليهما بأن يتناولاه. لكن الشوكتين والملعقتين والسكينين سقطت من يديها على الأرضية. ومما زاد في الطين بلّة أن القنينة الملوثة بالزيت التي صبّت فيها النبيذ الأحمر، ولعلها قنينة الكيروسين، علقت بردنها صدفة، فسال النبيذ على الطاولة جزافاً. وركضت كسينيا إلى الدهليز، ثم التجأت إلى المرحاض، وانتحبت هناك من شدة الخجل البائس الأليم. فيما رتبت آيديم الأمور بدونها، حتى أنها أعادت النبيذ المنسكب على الطاولة إلى القنينة وجمعت منه ربع كميته السابقة. عادت كسينيا وتحت عينيها غضون قاتمة وطلبت منهما مع ذلك أن يأكلا ما اشترته وطبخته. وما عدا ذلك لم تكن تعرف ماذا تقول. لم يكن بوسعها أن توضح لماذا تشعر بوخز الضمير أحياناً لأنها حية ترزق، ولماذا يحزنها إحساسها بأنها امرأة تتمنى السعادة والارتياح. وحتى

عندما تبقى لوحدها تغطي وجهها بيديها من هذا الشعور وتحتقن وجنتاها تحت راحتيها.

أكل نزار وآيديم شيئاً من الطعام بحكم اللياقة وودّعا مضيفتهما. ووعدها نزار بأن يزورها مرة أخرى بعد عدة أيام.

لكنهما التقيا قبل ذلك. ففي المساء التالي جاءته كسينيا بنفسها. كانت تريد أن تساعد آيديم كما تساعد المرأة صبية أصغر منها. أخذتها إلى الحمام العمومي، ومن هناك ذهبت معها للتفرج على المترو وعادتا إلى المنزل في ساعة متأخرة.

وفي عطلة الأحد جاءت كسينيا من الصباح وجلبت بعضاً من ألبستها الداخلية التي غدت صغيرة عليها، وهي مناسبة لآيديم. في ذلك اليوم ذهبوا ثلاثتهم إلى المطعم وتناولوا الغداء، ثم تنزهوا ودخلوا داراً للسينما وعادوا في المساء.

تكوّرت آيديم على سرير أم كسينيا وغفت في الحال. فيما جلس نزار وكسينيا على أريكة صغيرة مقابل الصبية النائمة وراحا يتطلعان بصمت إليها، إلى وجهها المحتفظ بقسمات الطفولة وآثار الآلام والهموم، إلى التعابير الواضحة عن طاقاتها الكبيرة النامية التي جعلت تلك القسمات تبدو ضئيلة مطموسة.

وأخذ نزار يد كسينيا وأحس بنبضات قلبها المتسارعة البعيدة وكأنها تريد أن تخترق الحواجز لتنجده. وأدرك أن النجدة لن تأتيه إلا من غيره.

عام 1935


https://telegram.me/maktabatbaghdad





قالوا عن أندريه بلاتونوف:

* «بلاتونوف من الكتاب القلائل الذين ينبغي أن نتعلم على أيديهم»

إرنست همنغواي

* «كنت أقلده دوماً. والأصح حاولت أن أقلده»

يوري نجيبين

* «بلاتونوف صفحة أدهشت العالم من جديد. حتى بعد أعلام القرن التاسع عشر. وجعلته ينتفض ويتحير أمام لغز الأدب الروسي».

سرغي زاليغين

